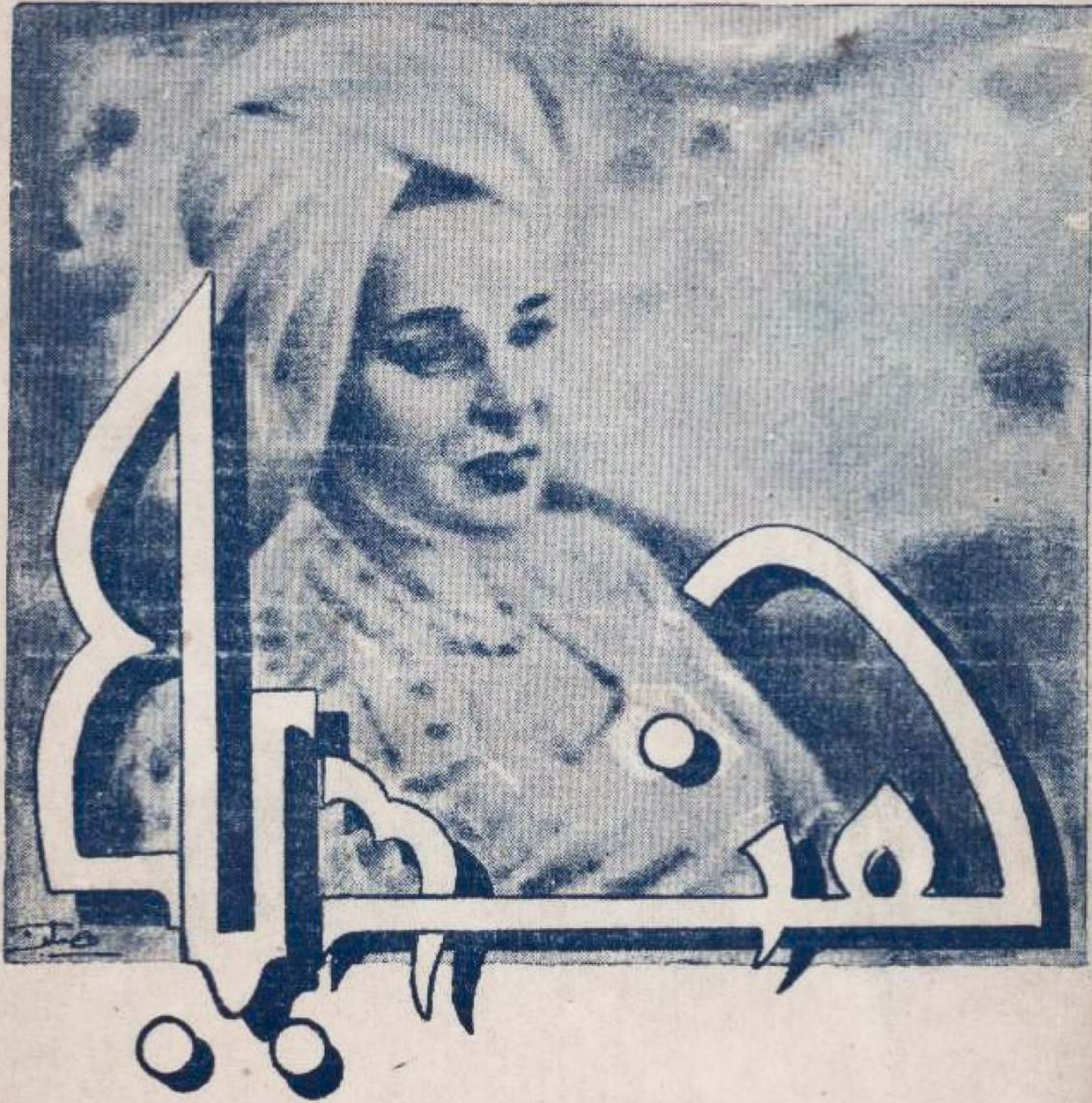


مجمع الأدب الغزني

يقدم



بقلم
جميلة القلايلي

رئيسة مجمع الأدب العربي

إلى أبناء الروح :

كلمة

مجمع الأدب العربي

بقلم سيد ندا

سكرتير عام المجمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل من الخير أن يستأثر الإنسان بعاطفة من يحبه لنفسه أم يستغل هذه العاطفة لإسعاد الإنسانية بقدر المستطاع ؟

هذا ما يشغل فكر وقلم الكاتبة - مؤلفة هندية - فهي تحاول فيما تكتب - في إيجاز أو اسهاب نثراً أو شعراً في المقالة أو القصة - أن تتجه بالعاطفة إلى السمو المطلق والإنسانية الشاملة راغبة في أن تستغل العاطفة في خدمة الفرد والمجموع ولا سبيل إلى ذلك إلا بتطهير العاطفة وإخراجها من أسوان المادة إلى أفق الروحانية .

ولقد خرجت من دراسة الروحانية الشعوب بأن أوفر الشعوب تعلقاً بالروحانية وتأثراً بها واعتناقاً لفلسفتها وقوتها وإيمانها هو - الشعب الهندي - رغم تعدد ألوانه وأديانه، هذا الشعب الذي يجدر به أن يباهى العالم كله بزعيمه المثالي (المهاتما غاندي وشاعره تاغور) أجل إن هذين الروحانيين لجديران بأن يوقف الشرق تفكيره على دراسة مهدهما الروحي فأنت لا تستطيع أن تقول بأن

غاندى خلق الهند إذ لولم تكن البيئة الروحية فى الهند قوية لما استطاع
غاندى أن يؤدى رسالته الروحية التى غالب بها أهواء
الاستعمار وحارب بها الاستغلال الاقتصادى ومطامعه .

من أجل ذلك آثرت شاعرتنا ، جميلة ، أن تخرج للادب العربى
قصة (هندية) على ضوء روحانية الهند محاولة أن تلمح المادية التى
أوشكت أن تقتل الشرق كما قتلت الغرب بمصل هذه الروحانية متسائلة
أتراها تستطيع ؟؟

ويجمع الأدب العربى إذ يقدم هذا اللون الجديد إلى عالم القصة
الذى يزخر بالقصص المليئة بألوان شتى من الادب الرخيص والتى
بات يتأثر بها شباب الجيل مما حدا بهم إلى الميوعة والضعف والركود
والاستهانة بأسمى المثل وأكرم الغايات .

يرجو الله أن تكون هذه القصة فاتحة خير لعواطف أبناء هذا
الجيل فيكون الحب خير وسيلة للحرية الكريمة والاستقرار
الأمين والكفاح الصادق وتحقيق أسمى الأهداف .

وفقنا الله جميعاً لخدمة الأدب والإنسانية مرضاة لوجه الله .

« البحث وراء المجهول »

على وجهها معاني وجوه كثيرة تحمل من الإحساس العميق والذهن المتوقد والحيرة الدائمة مسحة بادية ! فإذا حادثتها تأخذك الحيرة ! إذ تخفى عنك أشياء وتبدى أشياء وهي في إخفائها وتصريحها غامضة مبهمة ، ولكن غموضها محبب بديع يشعرك كأن وراءها دنيا مجهولة تغريك على التعلق بها لتفهم كنهها ، ذلك لأنها « ملهمة » تسبق تفكيرك وحسك بخواطرها ... ويكفي أن تنظر في عينيك برهة أو تصفح حديثك لحظة . لتنقل إليك حقيقتك . وقد يعمق حس استكشافها قترفع الستر لك عن أشياء قد تخفيها أنت عن نفسك .. هامت بدنيا سحرية رحيمة مجهولة ، خلقها خيالها الرفيع وحسها الدقيق ، فإذا تهرمت بدنيا الناس - وهي أبداً متبرمة - نشدت في دنيا الأحلام ما عجزت عن تحقيقه في عالم الحس واليقظة لتشبع طموحها إلى تلمس مثلها العليا ، ونزوعها إلى التحليق فوق السحاب ، وما كانت أمانيتها أمانى عذراء تقنع برغبات الأنوثة وتسعى لتحقيقها ، إنما هي تفكر للإنسانية كلها ، تفكر للرجل في جنسه ، وتفكر للمرأة في جنسها ، تفكر في البيئة الصغيرة وتفكر في المجتمع الكبير ، تفكر في وطنها المحدود ، وفي « العالم كله » وطنها الأكبر وهي دائماً مفكرة مبهومة ، تعيش في حدود مثلها الأعلى الذي تعيش له قناعة به راضية

حقيقة الجوهر الأصل الذي خلق الله من أجله الدنيا والكائنات
وهي في خلوتها هذه، تحاول تلمس الروح السرمدي بأصابعها العشر
فتقيم من حركة هذه الأصابع الرقيقة النشيطة معالم غريبة عجيبة تختطف
رسومها من ظلال الغيب الذي يتفتح لها في ساعات النشوة السحرية
الحالة، حيث تنسرح روحها في العوالم اللامرئية فتري أشياء جميلة
خلابة فاتنة قوية التعبير مع صمتها، ولكنها أعمق من تفكيرها وأبعد
منالاً إذا حاولت التعبير عنها.

وهنا نملكها الحيرة القاسية من جديد وتري أن كل ما بلغته أذهان
العابرة والمفكرين والفنانين في أنحاء العالم - منذ بدء الخليقة حتى الآن -
لا يذكر بالنسبة إلى محيط المعرفة اللامدركة. إنها قشور لا أكثر
ولا أقل تبذل في سبيل العثور على أسى ما عرفت الأجيال الماضية من
تفكير ناضج ينتهى إلى المعرفة المطلقة، معرفة كنه جوهر الحياة.
فأين من يعرف سر هذا الجوهر؟

عجيب أمر أولئك الذين يقيسون مسافة اليوم بمقياس مسافة
الأمس ومجرى الفلك يتغير ويتطور !!

وهكذا يحرقها فكرها الطليق، من قيود الماضى فتبدو على
الأرض بشرية، وإن كانت في الواقع - وهي تعيش خاضعة لسلطة
روحها - إنسانة مجنحة. متناسية - في غير تملل - مطالب البدن التي تحرك
مشاعر ابنة العشرين ...

وهي ليست شاعرة أو فنانة فحسب ، بل هي « راهبة » ، لا تقنع
أن تنشر الطمأنينة والحرمان في مكان واحد ، ولكنها تنتقل من
دير إلى دير ، تجر وراءها أثقالا من الشجن صابرة غير متبرمة بما تشعر
به من مجاعة حسية فرضتها على نفسها ، لتنجو من غدر النفوس ولؤوم
الطباع وتفاهة الأوهام راغبة عن الحياة المليئة بالمطامع الفاسدة
والحب الكاذب والحسنة التي تجزى بالشر ...

تؤثر الصمت ، فإذا تحدثت أدركت أن وراء ألفاظها الهادئة وصوتها
الحنون ظمأ لا يروى ، وإذا سائرتها وتمشيت مع أخيلتها شعرت بقوة
تطغى عليك ولمست ما « وراء المجهول » ، الذي تجد فيه رجاءها ،
ومن ثم تتألم لها وتخالجك نزعة من الإشفاق عليها ، ولكنك تكبر
فيها الألم الصامت الدفين وتباركه كأنك صهرت معها في بوتقته .

وهي مشغوفة بالكشف عن خفايا الدنيا ، فإذا اقتربت الدنيا
مها وكشفت لها عن ناحية من نواحيها راحت تسير في طريق جديد
غير مأهول ، باحثة عن غاية أخرى ، وهي أبدأ ضالة بين مسالك
الحياة تبحث ولا تهتدي .

تعذب نفسها وتشقيها وفي يدها خلاصها ، وكأنني بها واحد من
أولئك الشهداء الذين أبوا إلا أن يعيشوا شهداء ويمضوا مجهولين
في سبيل الغاية المثلى والأمل البعيد .

مسكينة وإن ظنها الناس سعيدة ، تعيش مجنحة حاملة تنتقل بين

الأرض والسماء ، عذاب لا ينتهى ، ومجاعة هائلة ، وظمأ لا تنقح غلته ، مشبوبة العاطفة ، طائرة الروح ، وهى أبدأ فى نضال عنيف ، تقسو وتظلم - ولكن - مع نفسها ، وهى لا تتردد فى حبس هذه النفس كلما حاولت الحياة أن تجذبها إليها بمغريتها ! وقد يخامرها الحنين إلى المجهول النائي ، إلى الغامض الذى لا يفسر ولا يسقط عنه قناع ، فتضرب الهواء بجناحي روحها محاولة أن تستدنى أقرب الأرواح إليها على يكون الروح الذى خاتمت من أجله ، ولكن سرعان ما يتكشف لها عن « حقيقة البشرية » فتراه لا يمتزج عن أبناء الدنيا بشيء ، فيه غرائز الأرض وميول التراب ، فيه العجز عن السمو معها متسائلة : هل لأن جناحيه خلقا من صلصال مهين ؟ أم لأنها تشد حياة نورانية متحررة من قيود المادة ومطالب الجسد ؟ وهذا ما يهجز عن الوصول إليه كثير من الناس . .

ومع أن قلبها ملتحق بالروحانية مشرب إلى الطموح فى الزهد فإنها كانت تتأثر أحيانا بغرائزها التى تستهويها معالم الفناء القاسى ، وفتما لنا موسى الحياة ، ولكنها لا تلبث حتى تحس بأنها لا تستطيع أن تستجيب ، زاهدة فى هرج الحياة وضجيج المجتمع ، قادرة فى حكمة واعتدال - على أن تطرد جراثيم الرغبة التى لقحت بها الطبيعة إنسانيتها السامية . وبذلك أدركت روعة النصر ، وعرفت ذلة القهر ، وفهمت فلسفة الاحتمال والصبر والكفاح وضبط النفس بأسلوب صريح

لا يشوبه الغموض والإيهام الذي نلسه في كتب الفلسفة حيناً ،
وفي منطق المثقفين المعقدين أحياناً ، فاذا فزعت إلى محرابها مبتعدة
بعيدة عن دنيا الناس شعرت بأن قلبها يتفجر دماً ليعث الحرارة ،
لا فحة مهلكة صارخة في أعماقها ، فاذا استعانت بحكمتها وإرادتها
لتطفىء هذه الجذوة المشتعلة ، اضطرب قلبها - الخافق الملول المتبرم -
وثار كأنه بركان تفجر تحت ضغط قاهر ، ليشعرها بحاجته الماسة إلى
شئ مجهول تحس إليه وترتجيه ، فلا يسعها إلا أن تستعين برفقة الرجاء ،
وحلاوة ، الأمل ولطف العزاء ، ثم لا تلبث حتى تهراً وتطمئن .
ولو أنها كانت دميمة غير مرغوب فيها لهان الأمر ، ولكنها
حلوة كابتسامة الربيع ، ودیعة كصباحة الفجر ، فاتنة كاشراق الصباح ،
حساسة فيها مخطسة الكهرباء .

وإلى جانب هذا الجمال الحسى تنطوى نفسها على روحانية عالية
وإيمان صادق ، وإرادة قوية لا تعرف اللين ، .

تتیه المسكينة بقدرتها على كبت عواطفها ، فياللتیه الحزين الذى
تدفع ثمنه من دمها . لأن الطبيعة قوة قاهرة جبارة ، وقد يحلو للقدر
أن يختبر أمثالها من المؤمنين المثاليين المتمردین ، لذا كان يخضعها
أحياناً لآمال العذراء التى تبعث فى نفسها إحساس الرغبة الصادقة
والحنين الصارخ إذا ظهر فى أفق حياتها نجم ملتصع يحاول أن
يجذب قلبها بإشعاعه الواضح .

هنا تقول الطبيعة : لهذا خلقت ! ويقول عقلها : فلنجرّب ! !
ويقول قلبها : أريد ، وتحاول أن تغالب نفورها وتناسى كبرياءها
لتكون إنساناً مستسلياً خاضعاً كغيره من الناس .

ويبدأ الصراع بين عقلها وقلبها ، فإذا انتصر أحدهما على الآخر
بدأ الصراع بين المنتصر وذلك الإنسان الذي يلوح لها بعصاه
السحرية .. العقل لا يقنع بالمظهر بل يجهد نفسه باحثاً عن الجوهر ،
والقلب يريد أن يجد عوضاً عن حرارته التي يستنفدها له ، أو يريد أن
يحتفظ بحرارته وحيويته فيأخذ أكثر مما يعطى لأنه يعتقد أن القليل
الذي يبذله أكثر مما تبذله القلوب جميعاً لو جمعت وأحبّت !! فإذا لاح
لها في أفق حياتها نجم يشير إلى روح تقترب منها تتأملها متغلغلة في
أفقها اللامحدود ، ترى عمق الشعور وسعة الإدراك وقوة الايمان ، وهي
في هذه الحالات تكون خاضعة خضوعاً مطلقاً ليقينها الثابت الذي يأبى أن
يجعل منها حلقة من حلقات الخيالة ، أو الخداع التي تربط بين
أبناء هذه الدنيا . وقد يجسم لها خيالها هذا اليقين نتيجة لما يترامى
إلى سمعها من أقاويل يتسلى بها الناس بعضهم عن بعض .. فتخاف
وترتعد وتعود إلى معبدها وفي قلبها تيارات فوارة وينابيع صافية ،
فيالشقاء المحبوب . وبالله وحدة المفزعة المرغوب فيها !

ليتها تأخذ الحياة كما هي ، وفاقاً لناموسها الأزلي ، فتكون إنسية
أدمية قبل أن تكون روحاً متمرداً يترفع عما في الوجود ، وفكراً
حائراً يحاول أن يحيط بالكون اللامحدود .

تعيش بأنوثتها لها دفء الجسد وحيويته وجاذبيته ، ولها أيضاً
قداسة الروح وسموها ولن يضيرها هذا ، فإن أبسط الأشجار ظلالاً
وأعلاها رءوساً هي تلك التي تغور جذورها بعيداً في جوف الأرض .
فليتها تطمئن للحياة التي تقبل عليها باسمة ، بدلاً من أن تتنكر لها هاربة
لتجري - جامحة - وراء مثل أعلى ليس له وجود إلا في ذهنها !! ..
الجبل عال ، والشقة بعيدة إلى القمة ، والقمة تغطيها الثلوج ،
ولو كتب لها التجرد من غرائزها ووصلت إلى هناك فلن تجد
غير البرد القاتل الذي يحولها إلى كائن آخر لا تدرى حقيقته
بالضبط، وإن كانت تدرى أن أوضح مظاهره موت الغرائز الدافئة .

« في مبعثها »

« هي » دائماً ترهق حسنها تحت مؤثرات قوية خفية مجهولة حتى
من نفسها، ومن هنا بدأت في صورة من العذاب الدائم والتبرم بالناس
وتحولت الحياة في ناظرها إلى كائن بغيض ، وهي جملة المحاسن وافرة الرواء .
وهي لا تدرى مبعث هذا ! أمن إيجاء أمها عن طريق الأقاصيص
التي كانت تقصها لها عن عمده أو غير عمده ؟ - لا تدرى ! - لتقيم بينها
وبين الرجال قنطرة من الشك والخوف لا يمكن اجتيازها ، هذا إلى عدم
قدرة الرجال الذين يتحجبون إليها ويكشفون لها عن خفايا صدورهم
على اختطافها من نفسها ، والاستيلاء على أحاسيس روحها ، والتمشي

معها في ركاب إيمانها تحت أضواء مشاعرها وظلال أحلامها الوارفة
الفينانة . ونشأتها في بيئة محافظة رغم التحرر الذي نعمت به الأسرة
بعض الشيء بعد وفاة والدها الجبار الصارم الذي كان يحرم على
الخادمة أن تمد يدها من النافذة وحرصه الشديد على التقاليد الدينية
والوضعية ، واعتقاده الجازم بأن المرأة خلقت للبيت فقط لكي
تؤدي مهمتها كزوج وأم . . ولطالماً خامرها هذا السؤال وبعث
في نفسها رعشة مخيفة ، ما عساه كان يفعل لو كان حياً ورأى ابنته
هكذا تجالس رجلاً تبادله الرأي والفكر في صراحة مطلقة . .
تؤكد أمها أنه لو عاش لما استطاعت أن تكون غير فتاة محبة
ولكانت اليوم في سننها الباكر أم أولاد لا يسمح لها بزيارة أهلها
إلا في مناسبات الأفراح والمآتم رضى الزوج أو لم يرض .

وكثيراً ما كانت تسهب أمها في قسوة والدها وما عانته من
معاملته الصارمة في بدء زواجها بعد أن كانت في منزل والدين
ينظران إلى الحياة من عينيها ويبتسمان للوجود بشفتيها . . .
كانت مدللة أسرف أهلها في تدليلها ، فإذا بها تصبح تحت سلطة رجل
الحب عنده هو أن يصونها عن عيون الناس جميعاً ، فلا يراها أحد داخل
البيت أو خارجه ولا يسمع صوتها غيره ولا يشعر بوجودها إلا
حتى أصبحت بتأثير ترويضه كالخمل الوديع تطيعه طاعة عمياء .
وهكذا كانت تقص عليها الأم صورة حياتها الماضية وهي دائبة

الإصغاء والتأمل . . تصفى إليها لتفكر وتطبق ما تسمعه على ما تراه مقارنة بين شباب اليوم وشباب الأمس . . وكيف كانت الرجولة إذ ذاك طاغية صارمة غيورة تقوم بواجبها على الوجه الأكمل ، ولا تكلف المرأة أكثر من الطاعة وتذوق الحياة تذوقاً يحفظ فطرتها ويصون طبيعتها بالحب الرصين والخلق المتين . . بينما شباب اليوم لا يعرفون من واجبات الرجولة غير أسماؤها ولا يقيمون للقيم الأخلاقية وزناً ، ولذلك كانت دأمة التفكير متسائلة لم هذا ؟ وما نتيجة ذلك ؟ وما السبب ؟ وهذا ظلم ، وذاك عدل .

كان تفكيرها . . لا يعرف الهدنة ولا الهوادة . . دائب البحث والتعجب والتساؤل ، لا يقف عند حد ولا يهدأ بالها لأمر .

ولعل أمها كانت تخشى عليها مغبة هذا الإجهاد وتعرف كل مجهول ، فكانت تمنعها باللطف والإرشاد ، فإذا لم ترتدع منعها باللوم والتقريع ، على أن ذلك كان يزيد لها تشبثاً بالفكرة ورغبة في التحليل ، وكثيراً ما كانت تزج بها هذه الرغبة الدفينة في مغاور موحشة مخيفة لا ترى فيها غير ما يفزع ، لكنها كانت تتعزى دائماً بأنها لا بد محقة يوماً آملها السامية . أو لعل هذا الشعور وليد تعلقها بفلسفة غاندى وشاعرية طاغور ، لقد تلمذت على طاغور قبل أن تدرك كنه أدبه الروحي ورسالته الإنسانية . كان شبه مس من السكر ياء يجذبها إلى قراءة ما ينشر له فتحس بأن روحها تعانق روحه ، وأن



« طاغور »

قلبها يستجيب لكل خفقة من
خفقات بيانه الساحر . وهكذا
حول تفكيرها ومشاعرها إلى الهند
مسقط رأسه ومنبع رسالته ووحى
إلهامه . ولم تكذب تسنقر في دنيا
طاغور لتلمس المعرفة من فيض أدبه
الزاهر بالحب والأمن والطمأنينة
والسلام والدعوة إلى اعتناق هذه
المذاهب دينا للإنسانية ...

لم تكذب تستوعب ذلك حتى بدأت روحها تحوم حول غاندي
ذلك الاسم البسيط الذي يحمل قوة الدنيا والآخرة القوة العاتية
التي سخرت بالمادة الطاغية التي سيطرت على العالم سيطرة مطلقة .
أجل !! لقد شاء غاندي أن يقف بمفرده لا يملك من حطام الدنيا غير
روحه الجبارة الصافية لا يسنده حزب ولا يحميه ملك ولا يشد أزره
قانون أو سلطان . وقف وحده متجرداً من كل ما يتصل بالنفس
والبدن والقلب والروح من مطامع وأهواء مادية . مستمعينا بروحه
العظيم الهائل على محاربة شعب من أقوى الشعوب .

واتخذ لنفسه أسلوباً غير أساليب الحروب التي تعارفت عليها
الشعوب القوية والضعيفة منذ أجيال . . أسلوب العزم والصدق

والإيمان والحب والأمن والتسامح والسلام ، فمن كان يظن قبل أن يظهر غاندى أن هذه القوى المعنوية المجهولة تفعل تأثيرها الساحر فى شعب متعدد الألوان والأديان ثم ينتقل سحرها فى خفة الأثير إلى جميع الشعوب والبلدان .

خرجت - الفتاة - من التفكير فى ذلك ، إلى حب غاندى حبا طاعيا غنيضا مشبوباً ، وبات غاندى - ذلك الهيكل العظمى النحيل - يملأ حسها ودنياها ، وراحت تهيم بمشاعرها وتفكيرها فى دنياه ووضعت له فى كل مكان من بيتها رسماً مكبراً بريشتها ليقع نظرها عليه أينما اتجهت . لقد أوشكت أن تجن به حتى فكرت أن تسافر إلى الهند لخدمته ونشر رسالته ، وبدأت تفكر فى جد لتحقيق هذه الأمنية . ولطالما تمنّت لو أن فى مصر رجلاً واحداً كغاندى لتضع نفسها فى خدمته ونشر رسالته . ولم لا ؟! أليس غاندى رسول الحب والسلام فى هذا العصر والله يباركه ، إذ لا يمكن لكائن أن يكون خيراً إلا إذا كان من جنود الله . فلتكن بدورها جندياً من جنود الله .

لقد جنت المسكينة بحب غاندى حتى هال أمها أمرها وراحت تخفى عن ناظرها الصور التى حرصت على وضعها فى وضوح ، ولكم حدث نزاع بين الأم وابنتها بسبب ذلك ، إذ كان يفرع الأم رؤية ذلك الجسم العارى النحيل ، والوجه ذى العظام البارزة والعينين

البراقين وسنين بارزتين أنه في نظر الأم شبح مخيف ذلك لأنها تنظر للظهر المادى ، لأنها لم تحاول أن تعرف عنه شيئاً ، أو تنلس روحه ، عكس ابنتها التى تستشف ما وراء الجوهر الروحى .

لذلك كان يروعها ويحزنها أن ترى صورته ملقاة على الأرض فى سخرية واشمئزاز ، فتثور وتسب وتلعن فى غير وعى . من يجرؤ على لمس صورة الروح المقدسة الغالية ، إذ كثيراً ما كانت الصورة تتجسم أمامها . فيخيل إليها أنها حقيقة ماثلة لديها فتشعر بما يثير الدفء والحفاة والقوة وكل ما يتصل بالأشراق والبهجة حتى تحس بشبابها الحى المتوقد الذى لا يحفل بكآبة الخريف ولا يأبه لعواصف الشتاء بل يضيف إشراقه على كل شئ ، لأن ينابيع الحياة الصافية التى وانتهى من قبل روح غاندى تتدفق فى أعماقه فتكسبه قوة ، وورود الربيع تفرش طريقه فتزهو له الدنيا وآلهة الحب والجمال قابضة فى محرابه فتشعل له أضواء الفتنة ، والله يمد يده النورانية ليمنع عنه وسوسة الشيطان ويفتح بصيرته على نور الإيمان .

هنا نرى الدنيا كلها تفيض بالعطر والنور فلا تلبث حتى ترتفع بروحها متسامية عن دنيا الإنسان على ضوء حبها لغاندى ، فاذا أفاض عليها هذا الاحساس محبة الوجود ودت أن تعب من ينابيع الأرض المظهرة لتضيف على الدنيا جمالا وأنسا وبهجة وحباً ، فاذا استفاقت



مخاض

من حلمها القصير . وأدركت
أن صورته ظل وخطوط
على الورق تعاودها كآبتها
ووحشتها وحيرتها، ثم تدأب
على الصمت وتعكف على
التفكير، فلا تلبث حتى تخرج
من دنيا غاندى إلى دنيا
الطبيعة المهمة الأولى لغاندى
طاغور ولها ولكل من
اتسم بميسم الروح .

وقد تحير عارفوها في فهمها وإدراك كهنها ، وقد أخذهم ذلك
الصوت المنغم الحزين والضوء الحالم الملتمع التماع الدموع في عينها
والبسمة الخاطفة التي ترسم على شفتها لحظة لتساءل : من أنتم ؟
ومن أنا ؟ .

وكثيراً ما تساءل الناس عن سبب اعتكافها وزهدا وتجنبها
الرجال : أمن خيبة حب ؟ أمن غرام بلا أمل ؟ أمن عذاب بعد
سعادة ؟ أمن غدر الدهر أو ظلم الانسان ؟ أمن يتم أو حرمان ؟
وهي تسمع وتضحك ساخرة . تضحك ضحكة المرارة والالتياح .
إذ لو استطاعوا أن يسبروا غور فكرها ويكشفوا قناعها لأدركوا

أنها فتاة خلقت لتحس وتفكر . وأى شأن لها في الحياة لا تعرفه ولا تحاول أن تعرفه ، لأنها تؤمن أن أمرها بيد الله لا بيدها .
ولو كان الناس ملهمين مثلها لأدركوا ذلك . إذ لو كانت فتاة
لهو لتعلقت بالدينا وصحبته الأهواء ، ولسارت بجانب لداتها اللاهيات
اللاعبات ، تاركة الحياة تمتص رحيق قلبها النقي لقاء ما تسبغه عليها من
مظاهر الأغراء ، ولو أنها كانت فتاة جاه ومادة لسكانت اليوم في سنها
الباكر زوجة ذلك الوجيه الذي كان يتمناها ، فهي رغم موافقة الأم
كانت ترفض وتهدد . في جرأة لم تعرفها الأم فيها من قبل ، وهي تبدو
دائماً باكية بغير دموع والناس لا يعرفون بواعث هذه الدموع !
ولكنها تعرف أنها الدموع التي تغسل النفوس الآثمة ، والأضواء
التي تهديء القلوب النائرة .

فمن يفسر الالتماع الظاهر في عينها من ؟
من يفهم ما وراء ألفاظها الخاطفة الهادئة من ؟ ..
من يستجيب لنداء روحها وهتاف قلبها وأنين نفسها ؟
تؤمن بأن لها في الحياة رسالة خلقت من أجلها ، وليس تفكيرها في
هذا الشأن وليد تعليمها أو ثقافتها التي اكتسبها من التعليم والإطلاع ،
وإنما هي من وحي الله .

والله وحده هو الذي يلهمها ويوجهها ، وهو الذي يسخر الطبيعة
ليكون معيناً لفكرها الذي لا ينعضب ، وينبوع إحساسها الذي لا ينتهي

ومصدر القوة الخارقة التي لا تنفذ . أجل ! اهـى تعتقد أن الله فتح عينها على أسرار الطبيعة فى قوة لم يمنحها البشر ، كأنها قرأتها فى كتاب حافل بالأسرار الإلهية ، أو تنزلت عليها وحيا وإلهاما .

فاذا ما طلع عليها الشروق تجدد أملها وراحت تفكر متفائلة فى فلسفة الأمل واليقظة والتجديد . راجية أن يكون قلب كل إنسان كلمة من لمحات هذا الأمل الصافى الباسم .

وعندما تغيب الشمس ويلبس الأفق مسوح الذكرى والحنين ويبدأ الليل ينساب فى رفق وهدوء من وراء الغيب ليدثر الدنيا بدثار يبعث الغفوة الصغرى كى تستريح الأذهان والقلوب لتستعيد نشاطها كما تنأهب لجهاد مرتقب ، وهنا تتفتح كل خالجة فيها عن حنين دافق ورغبة واعية لإدراك كنه هذه الحياة .

مدرستها الطبيعة ، وكتابها الطبيعة ، وأستاذها الأعظم الله . . . وعلى هذا الضوء القدسى تتأمل وتقارن بين ما تتمخض عنه قرينة الإنسان وبين ما يحتجزه قلبه من أحاسيس ، وما يحول فى ذهنه من انفعالات .

وهكذا كانت صلتها بالرجل صلة غير مألوفة لديه ، فهى لا تشده باعت أنس ومرفأ راحة ومناط غاية مادية ، إنما تريده شطراً مكمل لفكيرها ومشاعرها ، وعاملاً قوياً لإيمانها ، تريده روحاً متجانسة مع روحها لينقلها إلى العالم بعض فصول كتاب الإيمان المطلق بقدر

ما يسمح به عمرهما القصير أو الطويل.. تريد أن ترى «الإيمان» مجسماً فيه بعمقه وفلسفته وما يوحيه من حب له عظمة الطبيعة، وقوتها وحكمتها وسيادتها وتواضعها.

على أن الرجل ، مع الأسف ، كان دائماً مأخوذاً بجهالها ناسياً كل شيء إلا أنها أنثى خلقت لتؤدي وظيفة الأنثى فحسب ، هو يراها «أنثى» امتازت برجاحة العقل ونضوج الفكر وعمق الإحساس، كذلك يرجوها أن تعيش كما أنثى تؤدي رسالة الأنوثة في مختلف مراحلها وكفى! . لذلك صح عزمها على أن تنجى هذا الاتجاه الأرضي وأن تندفع باحثه عن الجوهر متغافلة عن المظهر .. رغم اعتقادها بأن الشقة بعيدة وأن المهمة شاقة، محاولة أن تفهم الدنيا متقمصة روح طاغور وغاندى لتعيش كما أراد أن يعيش أبناء الدنيا بعيداً عن الأنانية والحقد والحسد ، ويروا في أبسط الأشياء أقوى مظاهر الجمال والعظمة الإلهية التي تحجب الحياة الشاقة المتعبة للإنسان .

« صراع من أجل غاندى »

وبدأ صراعها ، عندما كشف لها الرجل عن هواه فى أدب وحرص .. فقد استطاع أن يدرك بعض اتجاهاتها الفكرية والحسية فجاءها من الباب الذى تستطيع أن تفتحه - باب الإيمان - محاولاً أن

يعزوا كبريائهم بالحب لتخضع ويقاوم تمردها بالغرام لتطمئن
مستصغراً تفاهات المادة لتلين .
شاء أن يغير من اتجاه تفكيرها . . وقد أحس أنها أوشكت أن
تطمئن إليه ..

ولعلمها تظاهرت بالاطمئنان - إلى حد - لتترك له حرية الإفصاح
عما يحول في تلايف رأسه وخفياً صدره فقال .. لو كان للإنسان
منا ذرة ضئيلة من التحكم في الحياة لصنع فيها الكثير من الخير، ولما
أقدم على عمل سيئة البتة ، لأننا قوم مسيرون ليس لنا اختيار في
أى أمر من أمورنا ، وليت شعري من ذلك الذى يختار لنفسه جهنم
مصيراً؟! ومن ذلك الذى يألف أن يقدم على عمل عظيم في هذه الحياة ؟
ولكن والأسف!! أين الوسيلة المؤدية إلى ذلك ؟ إن نصف المجهود
البشرى للإنسانية يصرف في توفير الطعام لها والنصف الآخر يصرف
في إشباع الميول الجنسية ...

وهنا .. قاطعته الفناء قائلة : كما أنك تعنى أن الإنسان لا يمتاز
عن الحيوان الذى يعيش في الغابة؟ فأنت تجرده من روحانيته وأحاسيسه .
أوه .. إذا كان هذا القول صحيحاً .. فان الحياة لا تطاق ... أتتكن
قبس الروحانية الذى يضاف على أحاسيسنا لوناً بهيجاً يبعث الحرارة
والأمل والتفاؤل ، ويدنينا من الحقيقة السرمدية — حقيقة الإيمان
المطلق — هذا القبس الذى يفرض على الانسان تلك القيود التى

تجعل منه شيئاً آخر غير ذلك الحيوان ! .. آه .. لو عرفت الله تماماً .
القلت غير هذا .

قال الرجل : لا أكتملك أننى كنت فى حدائى أحمل من النور فى
صدرى ما يدنينى من الملائكة المقربين ، ولطالما كلفت عقلى فوق
طاقته من التفكير ، وقلى فوق قدرته من الإحساس ، ولكنى إذ
رأيت أن الله جل شأنه يفرض على من الألم ما أنوء بحمله ...

فقاطعتة قائلة : ذلك لأنك لا تعرف الله ، فلو عرفته لدفع عنك
الضر حتماً ، وأغلب الظن أن تصرفاتك باعث ضعف إيمانك .

قال : إن الطريق الذى أسير فيه هو وفق إرادة الله بلا ريب
وذلك لحكمة إلهية مرسومة .

لذلك كان لابد أن اقتلع بذرة الاختيار من صميم نفسى ، وأوطن
النفس على أن أكون فى هذه الحياة مثل نسمة الريح ، أو كالثر الذى
لا يدري عن الزمان والمكان شيئاً ، وتهب الرجل فى مرارة وأعقب .
ولا أكتملك أيضاً أننى أطفأت آخر قبس مضىء فى نفسى وتجردت
من كل ما يتسم بالفكر والفن ، فليس فى قدرتى أن أهلك أعصابى وأحرق
ألياف فكري وأمزق نياط قلبي ثم أقدم خلاصة دمي وأحاسيسي
إلى الجمهور الذى يقرأ لاهياً جاهلاً وحقوداً حاسداً ، إن لنا يافتاقى
إلهما يتصرف فى حياتنا كيف يشاء ، وسكنت مطرقاً كأن اليأس قد
أخرس لسانه ...

قالت الفتاة بصوت يشبه هدير الحمام عذوبة ورقة : إنك تتكلم
بلسان المتشائم الشائر، وأنا أحب أن تحول ثورتك إلى تأمل وإيمان
لنخرج من ذلك بحقيقة تبعث الطمأنينة إلى نفسك فتدرك أن حياتك
كلها بين طرفي الشروق والغروب ، أى بين الأمل والألم !
فالساعة التى تقضيها تذرف الدموع وتحسها قرناً ، هى بعينها
الساعة التى تمر كاللمحة فى فترات الانشراح والمسرة ، أتريد أن
تعيش كالموتى ؟ !

فقاطعها بصوت حزين متقطع الا نفاس كأنه انتهى فى التو من
اجتياز شوط بعيد المدى : بل قولى إننا نعيش موتى فعلاً، إن أيامنا
تمر سراعاً ونحن نعدو كى نتلقفنا الهاوية المظلمة أخيراً ، وما نهاية الدوران
فى تلك الحلقة المفرغة التى يسمونها الحياة ؟ يعلو الجبهة غبار الليالى
ويغشى العينين ظلام اليأس ، وتجىء الدموع لتزيد من حرارة الأنفاس
التي يلهبها وهج اليأس المروع ، بينما تنتشر أفاعى الحياة على جانبي
الطريق الموحش تتلقف كل من يتخلف من القافلة ...

وهنا بدأ انفعاله النفساني يكتسح هدوءه المعهود فقاطعه الفتاة
لهدى من مرارة حديثه قائلة : حسناً، إذن لا تتخلف كى لا تتلقفك
الافاعي ، فابتسم على مضغ مردياً : هناك ما يسمى بالصخراء يافقاني
حيث الكهوف المظلمة يقبع فيها المشردون المملووظون من الحياة ، وعلى
شفاههم ينتشر الظمأ ، يعيشون على آخر قطرة من ريقهم المرير ، إننا آلات

تستهلك زيتاً ووقوداً ضئيلاً ، ولكنها تولد طاقة جبارة هائلة تشجع
لثلاثي في طريق العدم . إن أجمل فترة من حياتنا تنقضي بين النار
والحديد ، والعرق يتصبب من جباهنا الشاحبة ورءوسنا المنحنية تبحث
عن تيجانها في أجزاء التراب ، وسكت ليسترد أنفاسه .

.. فعقبت وقد ملكتها اللوعة والرحمة معاً : هون عليك ولا تدع
نظرك يعلق بصفحة الخريف حيث تبدو السحب السود في الأفق
وخاصة في الليل .. إنها توحى إلى النفس شجناً خفياً ، وتشعر
الإنسان بضيق في التنفس وهزة في الروح فماضرك لو طالعت وجه
الربيع الباسم ، إن الطبيعة أصدق معيار ينطبق على نظرية النسبية
وأحسب أن « أنيشين » كان يأتى بأعجب مما أتى به لو استمد صوراً حية
لنظريته من صلب الحياة . لا تقنع برؤية الليل الحالك ، دعه مرحلة
للاستجمام ، فإذا مضى فعليك أن تندمج في الشروق الباسم ثم فكر
كيف تعمل لتعيش .. ستجد البسمة طوال يومك مطبوعة على كل
مشهد أمامك .. تألم ، تألم بمقدار زمن ليلك لتعرف أدق العواطف
الإنسانية . ثم ابتسم بمقدار زمن نهارك لتعيش مع الحياة التي تدفعك
للكفاح والنضال .

قال : جميل هذا لو استطعت !

قالت : وما يمنعك ؟

قال : أنت ، ثم نظر إليها والوهج يتطاير من مقلتيه مردفاً ..

أنت سبب عذابي ! ؟ .

قالت: آه أوتظن هذا يشفع لك.. إني أكره الاستسلام، أكرهه
 فيك بل في الرجال جميعاً. لأن ذلك مظهر من مظاهر الضعف، كما أكره
 فيكم الأنازة، إنكم تحبون بقدر، فإذا لم تنالوا جزاء هذا الحب تحولت
 عاطفتكم إلى بغض وتسامحكم إلى نقمة وأملكم إلى يأس، وبقينا إن
 ذلك من ضعف الإيمان، فلو أن في إهابك إيماناً راسخاً لكان حبك
 مثله. جرد الحب عن الغرض والغاية، إن المرأة إذا أحبت تكون
 أكثر تضيحة وإخلاصاً، لأنها تجمع شباهها ويفاعتها وطفولتها
 فتجعلها كؤوساً من رحيق الإيمان ثم تسكبها في قلب من تحب..
 فهي إذا أحبت وهبت من تحب قلبها وروحها وحياتها وفكرها غير
 آسفة على شيء، بل لقد يتقلص العالم حتى لا يكون سوى عينيه فهو
 يغنيها عن الطبيعة فإذا استشعرت فيه نقصاً أتمته من إحساساتها
 الزاخرة وخيالاتها الخصبية، وهي لرهاقة مشاعرها وعمق عواطفها
 وصدق إيمانها تنقل إليه سر عبقريتها التي تندفق من عينيها اللتين تشعان
 نوراً ككوكبين متألقين، وهي حين تحب تندفع وراء من تحب
 بكليتها، لصدقها الأكيد ونقاء طويتها، ولكنها تخفي هواها وتمتنع
 عنه لانطباع نفسها على الحذر والحياء، وحرصاً على كيان
 حبيبها الصافي.

هنا تنهد في حرارة وغمغم: ورغم ذلك فهي أيضاً سبب كل شر
 وبلاء فاحتدت قائلة، إذا سلمنا بذلك فهي أيضاً باعث كل مجد

وعظمه وسعادة ؛ وأؤكد لك أن الرجل هو الذي يدفعها للخير
أو الشر ، لم يظهر عبقرى فى العالم إلا بفضل امرأة ، والرجل قد
يكره المرأة حين يرى قوته وهى تنهار تحت قدميها كتل من الكشبان
الرمليّة المتداعية ، وبقدرة هذه الكراهية يولع بها ويغرى بفتنتها
وضعفها ، وكلما اشتد حبسه زادت قوته ونضجت مداركه وتطهرت
روحه .. ثم توقفت لتسترد خواطرها الغائبة بينما استفاق الرجل من
غفوة التأمل فى جمال ثورتها وابتسم قائلاً : ولكن لا تنسى أن عطاء
الرجل دائماً يوشك أسرعه ولطفه أن يكون تضحية وقربانا ، وهو
يوشك أن يذيب الطبيعة فيها ويصهرها فى بوتقتها فما برقت الشمس
إلا فى شفيتها الورديتين وشعرها المموج ، ولا وضح نور القمر إلا فى
مقلتيها ولا أخضر الثرى إلا فى مواطئ قدميها ، بل أنه لم يكن القول
أن العالم لم يخلق إلا لها .. ونظر إليها كأنما يقول : أليس كذلك ؟
فقالت . أنا معك ، إنه يحبها ولكنه يحبها مجرد أنى يكتطف من غصنها
ثمرته المكتنزة ، ورغماً عنه يذوب تحت قدميها لأنه يترك فى أحشائها
قطعة دامية منه ، وكلما نبضت تلك القطعة انتفض قلبه والتهب إحساسه
وراح ينظر فى عينيها محققاً ليرى من سطح هذا البحر الصافى العميق
ماتركه فى قاعه من حياته الثينة .

وبدا صوتها يخفت رويداً .. رويداً .. وهى تحقق فى الأفق
البعيد كأنها تتخاطب إنساناً بعيداً ثم غمغت : آه يارب .. لقد

منحت عبيدك كل شيء ، ويصعب عليهم تفهم بعض هذا الشيء ١ .
فاتجه إليها بكليته وقد فاض وجيبه وقال ، آه يا فيلسوفتي الصغيرة
لو استطعت أن تفهمي حقيقتك لأمكنتك أن تبدلي حياتك وتخرجي
من سجنك الضيق .. إلى الحياة .. إلى النور ، أيرورك أن تعيش
كالطائر ؟ وأنت بالحنانك بلبل وبوداعتك حمامة وبخوفك عصفور .
فتهدت قائلة .. تمنيت لو أكون كالطائر يملك الدنيا كلها دون أن
يحمل على كتفيه عبأً — ولكن أين توأم نفسي لتعيش كما تعيش
الطيور في ذلك الوادي الذي تتلاقى فيه الطيور في ضباب المساء
فتتشاكى النوى وتبنى أعشاشها اثنتين .. اثنتين وإذا بها ، والناس
نائمون تلتقط الحطب الجاف من الغابات السندسية السحيقة وترك
نفسها في أحضان الريح وقد هبت شديدة في الليالي الباردة فلا تحرك
جناحها حتى تصل إلى مكان العش الذي تريد بناءه — تصل كما
ذهبت — اثنتين — اثنتين ، وقد قبض كل من الأليفين بمنقاره على
طرف العود ثم يضعان عش حياتهما بين العطف والتعاون والحنان ..
وسكنت لتجفف دمة طفرت من مآقيها من فرط حنانها الدفين
إلى إلفها المجهول ..

فالتفت عيناه بهريق الحب الصارخ ، وقال بصوت منهد رزين
— كأنه يقطع كلماته من أعماق قلبه : غداً يمضي الشباب وتنقضي
لأعوام وتنضب حيويتنا ويلعب الشيب في رأسينا ونكون على آخر

درجة من سلم الحياة .. غداً يقع ذلك ، ولكن لن تفنى الليالى تلك
الرابطة الوثيقة التى تربط بين المرأة والرجل . فهل لك أن تساعدنى
على تحقيق هذه الرابطة؟ قالت يوم تعرف الله وتعيش من أجله أولاً ،
وأثق بأنك تستطيع أن تكون قسماً يضىء فى الشرق ويلتمع نيراً
فى سماء العالم ، عندئذ أستطيع أن أكون لك .. فالنزم الصمت لحظه ثم
اقرب منها فى تهيّب قائلاً : —

يا صغيرتى ، ترفقى بنفسك وفكرى فى أمرك ، إننا لعبة فى يد
القدر .. هاهى الأيام تمر وأنت فى قيدك الضيق ونيرك الثقيل ،
تجودين للبشرية الجاحدة بأحب أوقات حياتك وعندما تسمع لك
البشرية لتستريحى تكونين مرهقة ، ونظر إليها كأنما يقول : أتفهمين؟؟
فنظرت إليه لأول مرة فى اطمئنان وقد أحست بأن قلبها
تفتح حيال ضوء جديد وقالت : صحيح ، ولكن ما عسائى أفعل ؟ أن
المجتمع من أساسه أ كذوبة هائلة ، وما تعارف الناس عليه هو أروع
الأكاذيب ، ولماذا؟ لأنكم صنعتُم هذا العرف من حلقات لا تنتمى
إلى عدالة السماء وتفتح صدرها عن ثورة محتجزة ، وقالت بصوت
ينم عن أسى ولوعة وسخرية ، لشد ما أنقم على هذا العرف وما ينطوى
عليه من نفاق ، ذلك القيد الحديدى الملتهب . لقد كان فى أوله حلقة
واحدة فلما تسلمها الناس جيلاً عن جيل ازدادت حلقاتها واشتد
ضيقها ! ولماذا؟ لأن القانون الأبدى ، قانون السماء ، هو قانون
الطبيعة ، قانون الموت والحياة .

أما القانون البشرى فانه عرضة في كل يوم لأن ينتهكه ظالم أو غاشم أو جاهل .

آه لو أن لي حبيبا بين هؤلاء الأبرياء الذين قذف بهم منتهكوا القانون في أعماق السجون . دون إثم أو جريمة . سوى أن فلانا أرسل خفية يتهم فلانا - مثلا - بأن رأيه يخالف رأى جماعة ينتمون للحزب الحاكم مثلا . . خبرني بالله أى عدالة هذه . . تلك التى تنتهك الحرمات جهارا نهارا بسبب وشاية أو غرض باطل ؟ . أى عدوان على القانون هذا الذى يحارب أصحاب الرأى الحر ألا من سبيل للإصلاح بالعدل والأنصاف ؟ فقطاعها : هبني أحد هؤلاء الأبرياء . . ماذا كنت تفعلين ؟ فقالت فى ثورة وجرأة : كنت أواجه المسئولين وأسألمهم بأى حق يسومون الأبرياء العذاب ؟ كنت أصرخ فى وجوههم وفى وجه الدنيا كلها بل فى وجه القدر أى خذى وأى عار . يحمله التاريخ . عن عصر من العصور التى تنتهك هذه الحرمات .

وظلت الفتاه تتابع سخطها وثورتها حتى خاف أن يحرق وهج حماسها خديها الورديين فقطاعها متلطفاً : كم أنت فاتنة فى ثورتك . دعينا من ذلك ، إذ لم يعد يعنينى التفكير فى القانون ولا الدنيا كلها يقدر ما يعنينى التفكير فيك ! .

وهمت بمقاطعته . ولكنه استطرد : دعينا نفكر فى المستقبل

بعد أن نكبر ويتقدم بنا العمر ، بعد أعوام حافلة بأجمل الذكريات
عندما أقبل في غبش المساء ، وقد أضعفت الشيخوخة من خطواتي
وأنا معتمد على عصاي وأجلس تجاهك موجها بصرى نحو بصرك
لأغيب في عينيك بعواطفى وتفكيرى ، حيث أذكر معك تلك
الهنايا ، هنايا صبانا الداوى حتى يرتفع منديلى فى سكون إلى عيني .
فلا يسعنى إلا أن أطويك بذراعى مغمغما : يا حبيبتي ! وابتسمت
الفتاة لهذا الخيال وأطرقت فى حياء فاطمأن واستطرد فى حماسة
كأن سكوتها شجعه على الاستطراد :

ثقى بأنك إذا أحببت فسيعرف الحب كيف يتودك من يدك
ويلقى بك على أقدام من تحبين ممزقة الثياب محلولة الشعر وسيكون
أول ما تنسينه من كلمات : الكبرياء ، والشك ، والحذر .
ققاطعته . قد أنسى كل شيء إلا الإيمان .

ولم يغب عن ذهنها أنه يحاول جهد طاقته أن يقربها منه ، وودت
لو أنها استطاعت أن تحول تفكيرها صوبه فتخرج من نفسها إلى
نفسه ناسية وجودها متفانية فى وجوده ، معتقدة إن فى مقدوره أن
يحبس خواطره فى مقلتها ، فلا ترى الحياة إلا على ضوء روحه لو صدق
وأخلص وضحى ، ولكن هل فى مقدوره؟ وفكرت فى سكون ، وهو
يترقب كلامها فى لطفة ، وأخيراً تكلمت : لقد تعارف الناس
على أن يتكلموا عن الحب كثيراً وقد أجادوا فعلا هذا اللون من

الكلام ، أما أنا فلا أفهمه كلاماً إنما أفهمه معنى يحل عن التعبير ،
أعرفه جوهرأ لا مظهرأ وإيمانأ لا استهتارأ فاذا كنت تحبني يقينأ
أثبت لي وجود هذا الحب بالعمل . في سبيل الخير الانساني والأصلاح
والوطني . . . وبقدر إيمانك يكون مبلغ حبك .

فابتسم قائلاً ، وما شأن الحب بالانسانية والمجتمع والوطن ،
هل أحد هؤلاء الأقطاب يعنيه أمرنا ؟ قولي دائماً أنا وحسبك ، فنظرت
إليه آسفة قائلة ، من أجل ذلك خلق الحب . خلق لا كتساح
الانانية فيفكر الفرد في المجتمع لأنه جزء لا يتجزأ منه . ويفكر المجتمع
في الفرد لأنه عضو فيه ، فإذا أصيب أحدهما بالشلل فتد تعطل عمل
باقي المجموعة ، إني أكره الرجل الذي يفهم الحب بأنفه وفمه فيظن
أنه مجرد بث اللامعة واسترضاء اللهفة ، حتى إذا أصيبت المرأة بعاهة
أو مرض يحول دون استرضاء غرائزه تنحى عنها ليعتزل عن غيرها .
فقاطعها : كم أنت قاسية وجائره ! .

قالت : بل عادلة رحيمة . إنما أريده إنساناً ممتازاً يتسامى بحبه
فيكون في قلبه لعاطفته قرار وفي ذهنه استقرار ، لأن الصلة الروحية
التي تصل بين الجنسين أبعث على الاطمئنان فلا تكسحها الطوارىء
ولا تزلزلها بواعث الانزعاج ، فيحس المحب انبعاث نفسه لنفس
محبوبته وتنبه عاطفته لعاطفتها ، ويحل الحنان الهادي . مكان الشوق
الخاطف ، والحب الرزين مكان التفرز الوثاب ، مؤمنا بأن علاقتهما

الروحية مثل لأظهر ألوان الحب وأنقاه موقنا بأن عاطفتها لحة بين
قلبين تقوى على الطوارئ والمطارق فإذا أنكر العالم هذه الصلة
الروحية فذلك لأنه عاجز عن السمو بحيوانيته غير قادر على تحطيم
أصفاد المادة .

فقاطعها محاولاً أن يخفي غيظه : جميل أن تعرفي ذلك ، ولكن
هل تظنين أنه في مقدورك أن تغيري نظام دنيا توارثته كابراً عن
كابر، إنك تضحى على عينيك منظاراً أسود كشيء لا يكشف لك جمال
الحياة ، خففي من حدة تفكيرك واخرجي من برجك العاجي ، تأملي
الدنيا بخيرها وشرها على ضوء عواطف الأنثى ، الأنثى الطيبة
المستسلمة ، لا المتمردة العصية .

أنك تطلبين المحال عندما تفرضين على الرجل أن يجرد نفسه من
غرائزه الجنسية ليكون مجرد روح ! إذن لماذا خلق الله الغرائز
أو تريد أن تجعل الرجل ملاكاً ؟ .. لو كان لما هبط على الأرض
حيث تقيمين ، واحد من اثنين :- .

أما أن ترتفعي إلى السماء لتختاري زوجك من بين الملائكة !
أو تحاولي جذب ملاك ليحبك ويتزوجك . وأنت يا صغيرتي كما تعلمين
آدمية خلق الله فيها غرائز البشر .

كان على حق فيما قال بالامراء ، لذا دمعت عيناها وأطرقت
لحظة ثم قالت بصوت خفيض مليء بالحسرة واللوعة : لماذا

أذن نجاهد لنرتقي بالثقافة والمادة ؟ ولماذا لا نرتقي بالعاطفة أيضاً فنطلب
التعالى عن مصاف العامة بتطهير السبل والوسيلة والغاية لنرتقي بالحب
عن الحيوانية أيضاً ؟ ! .

غائرى ينتصر

كان صوتها وهى تتكلم أشبه بنغم الناي المترامى من قلب الصحراء
فى جو هادى وسنان فبلغ قلب الرجل وملك إحساسه وحاول أن
يتكلم فوجد عواطفها القاهرة تطغى على شخصه الضعيف فشعر
بالتهب والخشوع كأنما يجلس إلى قديسة ! فسكت لحظة ليستجمع
شجاعته وقوته الممنوية ، ثم قال : ليتنا نستطيع ، ولكن كيف ؟
ونظر إليها فى حب ولهفة مردفاً : أين القدرة الخارقة التى تهيننا لذلك
يا ساحرتى ؟ . قالت فى جد و يقين : لم لا ؟ انظر إلى الكهرباء
إنها تنتج فى سكون ! فلماذا لا تكون العلاقة الروحية بين الجنسين
من هذا النوع الساكن غير المنظور . إن روعة النظرة فى سحرها
عند ما تكون رسالة لاسلكية بين الفؤادين ، وجمال الابتسامة الصافية
فى تبليغ الرسالة بين العاطفتين ، ثم هذه الغمضة التى لا تدركها الأبصار
وقد تكشف عن البواطن وخفايا الأسرار ، جميع هذه الدلالات
الخفية القوية تجدها فى الصلة الروحية الخالدة ، ولكنها فى غير تأثير
المادة فى العوالم الظاهرة ! فأين من يفهم أن أنة المتألم فى أذن المتألم

الحساس أقوى من صوت الرعد في آذان الناس ، والآهة الهادئة
التي لا يتجاوز همسها الشفتين يدركها الحزين فتخلع شدتها فؤاده
وتعصف في حناياه ، والمكاشفة الصريحة بين المتألمين موسيقى روحية
كالتى تعزفها الملائكة فى الفردوس للأطهار المقربين ..!

هنا أحست بأن قلبها يوشك أن يطير من صدرها فضغطت عليه
لتوقفه ثم راحت تتأمل صورة لغاندى كانت أمامها ريثما تهدأ ثورة
روحها فانتهاز الرجل فرصة سكوتها وقال : أظنك انتهيت من تأمل
صورة غاندى وبقى أن نتحدث عن نفسينا ؟ . .

فالتفتت إليه فى هدوء قائلة : — قل ما شئت عن نفسك إن كانت
تشبه نفس غاندى إذ يحلو لى الاستماع وليس أحب إلى من الحديث
عن غاندى إنه وحده العالم بأسره . العالم الكامل أما أنت فلا أحسبك
إلا صورة مصغرة لهذا العالم الكبير ، فتحدث إن شئت عن غاندى
إنه صورة العالم الالمحدود فى صورة محدودة مجسمة فى غاندى
لتفهمها عن طريقه فنحن أحوج ما نكون إلى تبسيط كل
ما يتصل بحياتنا لفهمه ، بسط الطب ليفهمه الناس فلا يمرضوا ،
وبسط الهندسة بما يتفق مع عقلية العامة فلا يختل نظام الحياة . .
ألا توافقنى ؟ . وأحست بملل من جلستها الطويلة فراحت تنظر من
الشرقة لتتلهمى برؤية مشاهد الحياة عسى ذلك يعيد إلى نفسها البهجة
بعد أن عاشت مع نفسها الجامعة هذه اللحظات .

فانتقل من مكانه ليقف بجانبها وهو يقول : لا تهربي من الواقع ،
فقاطعه : وهل حديثنا يخرج عن الواقع ؟ ..

فعيل صبره وقال : أوه ، فلسفتك متعبة صدقيني ، أو باختصار
على طريقة التبسيط ، أريد منك تحديد مركزى عندك ؟ .
قالت فى خبث : ماذا تعنى ؟ ..

قال : صارحيني .. فإن القلق يكاد يقتلنى ، فقولى هل أخذت
مكانى من قلبك ؟

قالت : مازلت أكرر ما قلته لك ، إنه بمقدار ما تحمله نفسك
من إيمان وما يدخره عقلك من مواهب وما يكتنه قلبك من شهور
يكون مبلغ تقديرى لك ..

فاغناظ وقال فى حدة : جئت اليوم لأحدد موقفى وأقرر مصيرنا
قالت فى جد ورزانة : أصغ إلى ، لن تبلى منى ما تريد حتى تؤدى
للوطن رسالة لأعرف أنك إنسان ممتاز يستحق قلبى ومواهبى ..
قال : المهم أن أجعلك سيدة عظيمة بل أعظم سيدة فى العالم وأنا
كفيل - كما تعلمين - بأن أهى لك حياة المجد والرفاهية والسعادة .

قالت فى استخفاف : أنت تعلم رأيى فى الثروة ومدى استخفافى
بها وتعلم أيضاً أنى لا يمكن أن أبيع قلبى بأى ثمن مهما ارتفع ، وتعلم
أيضاً أنى أحب غاندى ولا يمكن أن أستبدل به إلا رجلاً مثله فهل
أنت مثله ؟؟ ..

قال في مرارة : عجيب أمرك ، لم أسمع عن فتاة ترفض البروة
والرفاهية وتطلب الفقر والجهد ! أنسيت أن الله سبحانه يقول
« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ؟ .

قالت : والله سبحانه يقول أيضاً « وقل اعملوا فسيرى الله
عملكم ورسوله » .

فمأطعها : ولكن لا تنسى أن الفقر أرض خصبة للشور والرزائل .
قالت : لأننا لا نمنح الفقير حقوقه المشروعة وندفعه للشور والذيلة
مكرها ولو أن هناك عدالة إنسانية لكان له في الحياة شأن غير هذا
الشأن . ولكن إنتاجه أوفر وأعظم وأقوى أثرا من إنتاج الغني
المترف . فتظاهر بالاستسلام قائلا : صحيح ، والآن ماذا تريد مني ؟ .

قالت : لقد نلت ليسانس الحقوق منذ بضع سنين ومن ذلك
الحين وأنت تعيش في الريف كما كان يعيش والدك وجدك
تقضي اليوم لتأكل والليل لتنام .. فما الفرق بين عقليتك كمتعلم مثقف
وبين عقلية أبيك الجاهل ، وما الذي اكتسبته من التعليم والثقافة
إذن ؟ وما الذي استغاده المجتمع منك وقد كان المفروض أن يكون
لك معه شأن غير هذا ؟ .. ثم ما صلتك بالله ؟ أتقيم الصلاة وتؤدي
الصوم والزكاة ؟ . فضحك طويلا وهو يتمشى في الغرفة لينفـس
عن عصبية حركها تغتها وسخريتها به وقال : أتريديني موظفا ناسكا
ألا تعلمين أن الوظائف سجون مشروعة ، ومع ذلك فقد وجهت
بصري على أثر حصون على (الليسانس) شطرها فإذا بها بعيدة المال

إلا ما صغر منها وضؤل مورده ولا يد من وسيط ذى جاء أو سلطة قوية أو فع رشوة .. وفى الواقع لم أجد من نفسى ما يحفزنى للعمل فى أى ميدان كالحمامة مثلاً أو أى عمل حر . أما فرائض الله .. فإني أؤديها أحياً نأ ومادمت فى غنى عن الناس فلا حاجة بى إلى العمل .
قالت : أنت مسلم فيجب أن تكون رسالتك رسالة خير وحب وسلام
قال : وكيف ؟ .

قالت : من لا يعرف حب الله لا يعرف الحب فإذا كان قلبك عمر بالحب — كما تعترف — إذن فقد بزغ فى سماء حياتك نجم يضىء لك مسالك الحياة فى طريق الضلال الحالك ، بقى أن تفكر فى مشروع يحول تفكيرك من الخمول إلى اليقظة ومن الركود إلى الحركة لكي تصبح فى الغداة بطلا تقود الجواهر المتخبطة فى الظلام إلى طريق النور ألا يمكن أن تعمل على تحويل ذهن الفلاح الجاهل الذى يعيش كالحيوان فى الزرائب إلى ذهن إنسان يدرك حقوقه نحو نفسه وبلده ، ألا يحتمل أن تكتشف منفذاً من منافذ الخير للإنسانية أو قانوناً يبيد الجرائم كما اخترع الطب ما يبيد جراثيم أمراض البدن ! .
وهنا لاحظت أنه استراح لما تقول فتلطفت مردفة : جميل أن تحب ولكن أجمل منه أن تستغل الحب . فى عمل جليل هائل يحفظ لك كيائك ويرفع من شأن وطنك وتنفع به الإنسانية ، إن العقل الذى اخترع الطائرة والدبابة .. واكتشف الذرة عقل إنسان مثلك .

وبدأت عواطفها تنغم جرسها بنغم فيه حرارة و غيرتها الوطنية الصادقة وحبها للخير الأكيد ورغبتها في أن يكون الإيمان الحافظ الأول لجهاد الأحياء على ضوء الحب العف الطهور .. فربتت على خده في رفق كما تربت الأم على صغيرها لتهيب به إلى العمل قائلة : هيا اخرج من ظلام الناس إلى نور الله ، وسكنت لتترك له فرصة للكلام فرفع نظره إليها ولما أخذ وهي تغمغم : آه متى يتنبه الناس لشرائع السماء .. بينا راح يقول : وما ضرك لو منحتني قلبك من الآن لأستعين به على تحقيق غايتك ؟ ؟ .

قالت : أحب أن تشعرني بأناك مسوق بتأثير من روحك ولشد ما يسعدني أن أراك تجتاز الطريق الوعر سعياً وراء هدفك المرموق لتبلغ أملك المنشود بدافع من إيمانك وحبك .. من أجل الله والخير والحب ، فإذا استطعت أن تكون كغندي ، استطعت بدوري أن أحبك . فنظر إليها في حيرة كأنه يشك في صحة قولها ثم تكلف الهدوء والجد قائلاً : غاندي في الهند يا صغيرتي .. ونحن هنا في مصر . فقاطعته إن غاندي يطبق تعاليم الإسلام وهو من غير أبنائه وإني أعدك لاعتناق رسالته كي أحبك كما أحب غاندي ذلك لمصلح المثالي فأعجبته ثورتها وشاء أن يزيدا منها فقال :

أنا أفهم أن غاندي شخصية ممتازة فذة تفردت بسمات روحية وخالل قلبية وعقلية لم تتوفر إلا في سقراط وأفلاطون

وابن رشد وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وتولستوى وغيرهم
من زهدت نفوسهم عن سناء الحياة وبريقها وأحبوا الفضيلة لذاتها
واحتقروا الرغبات الدنيوية والأكاذيب واعتصموا بالإيمان الصرف
لتحقيق هدفهم فقاطعته : حسبك أن تقول كما قال تاغور : إنه أعظم
رجل في الدنيا أو كما قال أحد الهنود : أنه الرجل الكامل في دنياه
غير كاملة ..

فاقترب منها وقد بدأ قلبه يتفتح وعقله يتنبه في يقظة واضحة قائلاً :
يخيل إلى أنه من المستحيل أن أكون مثل غاندى — صدقيني —
لأن الطبيعة في الهند تضافرت مع عوامل أخرى على تكوين شخصيته ،
فإرادة غاندى وثباته الذى يشبه العناد وتصوفه وصفاء نفسه وسماحة
روحه وذكائه الخارق وحيويته الفياضة .. كل هذه الميزات التى لم
يهبها الله إلا الأنبياء هى من سمات الطبيعة ..

فقاطعته : إن غاندى لم يقنع بذلك ولكنه أخذ يبرز هذه المواهب
للناس فى جهاده العنيف فهو لم يقنع بما وهبه الله أو أسبغته عليه الطبيعة
بل كان يخلق نفسه فى كل ساعة خلقاً جديداً ولولا هذا لعاش ومات
فى صمت ككثير من الرجال الذين حبتهم الطبيعة بميزات نادرة فلم
يستغلوها ولم ينتفعوا بها .. لقد اتخذ غاندى لنفسه منهج الأنبياء لأنه
وجد ذلك أقوم السبل وأنبأها .. فهجر قصر أبيه الثرى ليعيش زاهداً
— كزهد عمر بن الخطاب فى قداسه وتقصفه وعدالته ، وأحب فى الرسول

بساطته وقوة إرادته فتمثل به وأحب في المسيح روحانيته
ومحبته فتشبه به وهذه هي الشخصيات العظيمة التي تأثر بها غاندى
وغيرها من شخصيات المثل العليا في تاريخ الإنسانية مثل سقراط
الذى تجاوب معه في العرى والفلسفة والتكشف . وهنا ابتسمت في
لطف ورقة وأردفت : وإذا كان غاندى المثالى العظيم تأثر بزعيمة
الشيوصوفية (أنى بيزانت) وتأثر بأدبها وكذلك (مدام فلافاتسكى) أثناء
دراسته في لندن ، فهل يصعب عليك أن تتأثر بملهمة روحية مثلاً ؟
فابتسم قائلاً : طبعاً لا . إذا وجدت ! . ثم غير لهجته واستطرد :
لكن هبني استطعت أن أكون كغاندى رسول خير وحب وإصلاح
فكيف أكون مثله شها ؟ قال ذلك ليثير احتقارها للظهر إذ كان يعلم
أنها لا تحب غير الجمال ، فقالت : إن جبهة غاندى العظيمة المرتفعة مظهر من
مظاهر النبيل والنفوذ والجاه وبتوء جبهته يشبه تماماً بتوء جبهة (أنى بكر
الصديق) كما قرأنا وبتوء جبهة (ميشيل انجلو) الرسام (وبسمارك)
الألماني السياسى الخطير وعيناه الكبيرتان الهادئتان تدلان على الصراحة
والصفاء وأنفه الكبير يحمل معالم الإرادة والثقة بالنفس ، وأذنا
الكبيرتان تشهدان بما طبع عليه من عزيمة صارمة وثبات أكيد .
إن جمال غاندى فوق الجمال .. فتصور صوره الممتلئ الكبير
يحمل حيوية واضحة وحماسة فذة كما كان (لبطرس الاكبر) . وذقنه
العريضة المتقدمة دليل الإرادة القوية الغلبة . وجمجمته الدائرة شاهد

ذكاء بارز . فلا تسخر من مظهر صورته فتقد شهد من لاقوا غاندى
بجاذبيته تنفذ من عينيه وبنشوة روحية عند سماع صوته الهادى
الحنون ومغناطيسية عجيبة سخرت الشعب الهندى العظيم لإرادته ،
وقد تمكن بها أيضاً أن يجذب إليه الأعداء .

وشاء أن يمعن فى السخرية منها فقال : علك تريدن أن تنضمي
إلى (مسز سليد) الإنجليزية لخدمته . فقاطعته : لا أبالى إذا استطعت
وهل ترانى أقل منها استعداداً للنسك والتقشف . وإذا كان الإنجليز
أمثال هذه السيدة والشاب (ريجنال) تأثرا به واعتنقا مبادئه أنكون
نحن الشرقيين أقل منهم استجابة وبيننا وبين روحانية الهند تشابه فى
الأحاسيس والميول والدين ، وهنا صرخت فى وجهه : إني أحبه ،
أحبه من كل قلبى ، أحبه لأنه نفخ عنه أباطيل الدنيا ومغريات
الوجود ، أحبه لأنه رجل رغب ذبوع اسمه ذبوعا يحسد عليه يسير عارى
القدمين لا يلبس إلا لباساً خشناً ، يلبسه إذا ذهب إلى المحكمة أو زار
الحاكم العام أو ذهب إلى قصر ويكنجهام ، أحبه لأنه ينام فى أرض
الحجرة على قماش خشن ويتخذ وسادته من القماش أو يسند
رأسه إلى كتبه ، أحبه وهو يعيش فى صومعته فى هذه العيشة الوضيعة
مع زوجته المخلصة المتفانية فيه ، وليس فى حجرة استقباله إلا بعض
المقاعد ورف الكتب ، أحبه لأنه يمثل حياة أبى بكر وعمر .. فى
الوقت الذى عجز فيه المسلمون عن أن يعيشوا وفق دينهم على الأقل .

أحبه لقوة خلقه وثبات مبدئه وعذوبة جوهره وسماحة نفسه . أحبه لأنه يقابل الشدائد كما يقابل الأفراح ويعامل عدوه كما يعامل صديقه ، أحبه لأنه مترفع عن الشهوات والرغبات .

ثم أخفت وجهها وراحت تبكي بصوت واضح كالأطفال . فترفق بها وقد ملكته الشفقة والحب معاً وقال : سأكون لك غاندى . سأكرس ما تبقى من حياتى على أن أكون صورة ممثلة لغاندى فى الجوهر ولا أقدم إلى المشنقة مرصاة لك . فبدأت عواطفها رويداً وقالت : لا يدفع المشنقة غير السياسة وقد عرف ذلك غاندى فتركها ليقوم بما هو أهم من السياسة . فبدأ يعمل على إخراج الهنود من سجن التقاليد الذى قتل عقولهم وأعجزهم عن فهم الحياة وراح يحارب مذهب النجاسة ويفتح أبواب المعابد والمدارس للمسيحيين ويدعو لحرية المرأة ومنع زواج الأطفال واتخاذ الملابس التى يغزها الفلاح الهندى الشعار الوحيد للهنود، وبدأ يحرر العقول من نير التعصب الدينى فزوج ابنه بفتاة من دين غير دينه بعد أن ثبت له أنهما تفاهما فكراً وقلباً . وراح يهتم بشئون جميع الأديان ويوحد بين أهدافها ووطنيتها، يستمع إلى القرآن والإنجيل والتوراة كما يستمع إلى ما قاله بوذا . الدين عنده هو العمل الصالح خير الوطن والإنسانية . وهنا اقتربت منه فى رفق وحنان ووضع يدها على كتفه وقد كان مطرقاً مفكراً وقالت : إذا استطعت أن تصلح بلدك وتبني لها حياة الآمن فى ظل

الإسلام وهبتك حياتي كلها. قال : إذن اتفقنا، فهل تسمحين لي أن نبارك هذا الاتفاق بإعلان الخطبة - على الأقل - ريثما نتهيا للزواج بعد شهر . قالت : لا . بعد عام إن عشت غاندياً لثبت لنا إنسانيتك ومثاليته . ولن تراني خلال هذا العام .

فتملئ مذعوراً قائلاً : أأظلم محروماً منك طوال العام إن هذا فوق احتمالي قالت ، هذا ترويض لقلبك لتتفتح بصيرتك على جلال الإيمان ولأعرف مدى عاطفتك وقوة صبرك ! ألا يصح أن يكون حبك لي نزعة عارضة ؟

قال : إن الله سبحانه يأمر بالصوم عن الطعام بعض ساعات وأنت تفرضين الصوم عن طعام روحي وقلبي ونفسي وحياتي كلها عاماً كاملاً ؟ إن قسوتك فوق القسوة وظلمك فوق الظلم ! إني أستأنف الحكم وأطلبه شهراً وإن حملني ذلك أيضاً ما لا يطاق من صبر واحتمال ! .

قالت : جرب صبر المؤمنين واحتمال الزاهدين ، وإرادة غاندي إنه مران لا أكثر ولا أقل . إن غاندي قطع أكبر مسافة في الصبر والاحتمال وهو كما تعلم غير مسلم . . . يخيل إلي أنه قرأ القرآن واستوعبه وآمن به وأدرك عدالة شريعته فعمل بها وسعى لتطبيقها فإذا عشت مع فلسفة هذا الزعيم ودرست جميع تصرفاته أيقنت أنها فلسفة الإسلام ، فلسفة الحب والتضحية والسلام ، إن

العالم كله لو تمشى وفق عدالة الإسلام لما حارب بعضه بعضاً. أو كذلك أن غاندى يدين بالإسلام ويعمل بتعاليم الإسلام وهو يؤثر المسلمين على أبناء دينه وعشيرته ويقف دائماً بجانبهم لنصرتهم. آه كم أحبه ، كم أحبه .. انظر وأشارت إلى صورة غاندى وهو يصغى إلى القرآن فالتفت عيناه بهريق عجيب وقال .. إني أغار .

فضحككت وقالت : احمد الله الذى جعل (عزولك) فى بلد بعيد .

قال : إذن اسمح لى يا بنة المهاتما أن أناديك منذ اليوم (هندية)

قالت : اتفقنا ، على أن تجعل القلادة التى تضعها على جىدى .. والتاج الذى تضعه فوق رأسى ذات حبات من جواهر إيمانك وفكرك وحبك وتضحيتك ، ساعتئذ أشعر أننى فتاة أدبت لله حقه وللعالم حقه بفضل جهاد إيمانك ، وحسبى .

وحاول أن يخفف من حكمها إلى أسابيع أو شهور. فلما وجدها مصممة والمحاولة فى هذا الشأن فاشله اضطر أن يخضع لمشيئتها مرغماً ، وافترقا على أن يلتقيا بعد عام فى مثل تاريخ هذا اليوم ...

« رجل يغيب وآخر يحى »

لم تكبد تخلو إلى نفسها حتى راحت تنمى فمما يجب عمله اليوم وقد نسيت صاحبها كأن ما حدث ، لم يحدث ، وهذا كان شأنها أبداً

لا تعرف الرجل إلا وهو معها فإذا انصرف لا تذكره ولا تحاول أن
تتخيله كأنها لم تره أو تتحدث إليه وإذا أخذ عليها بعضهم هذا أجابت
لماذا أُمِنَح الرجل من تفكيرى أو تخيلى أو إحساسى مالا أعرف
صداه من نفسه !! وفوق ذلك للأنوثة التزامات .
إن الله لا يريدنى أن أكون طعمة لهذه الانفعالات ، ولو كان
يريد لربط بينى وبين الرجل الذى يستحق .

واليوم يتأهب أهلها لاستقبال ذلك الرجل الذى طلبها منهم
فاستجابوا له لأنه يمتاز بثروة طائلة وجاه عريض ويصح أن يقف
فى مصاف الأمراء .

ولكنها لا تحبه ، ولا تستطيع أن تحبه لأنها لا تستطيع أن تهضمه
إذ روحها تنفر منه ، فإذا جالسه أحست نحوه بكرامية عميقة
لا تعرف مبعثها ولا مآثها . كل شىء فيه يحرك التقزز والاشمئزاز
ويقصصها عنه ، صوته - إذا تكلم - يترك فى أذنيها صدى نغم كريه بغيض
يبعث الاشمئزاز ، فتود فى التو لو يسدل بينها وبينه حجاباً كثيفاً من
الظلمة الحالكه لى لا تراه أبداً ومع ذلك فهى تضطر إلى مجالسته
إرضاء لنويها ونزولا على رغبتهم فى الرغبة الجائرة . إذ لو استطاعت
أن تطرده من البيت فى صراحة لفعلت لى يخرج لغير رجعة ، لكنه
يقدم لأهلها قرايين المصاهرة من الهدايا الوفيرة السخية ، ورغم
خضوعها وضعفها حيال استبدادهم بها وقسوتهم عليها ، فهى تنتهز الفرص

تلتج له في لباقة وصراحة أنها فتاة إيمان وفن ، وأنها وطنت العزم على أن تعيش لتحقيق آمالها الكبرى مهما كلفها الأمر ، وإذا كان لابد لها أن تتزوج فهي لا تستطيع أن تسعد إنساناً أو تعيش له وحده إلا إذا كانت تحبه ، وإن كانت تعتقد حتى الساعة أن الله لم يهيء لها لقاء هذا الزوج الحبيب المرتقب . وقد كان ذلك يكفى لرد الرجل ولكنه كان يتغافل عن المعنى الدقيق لصراحتها . مفسراً ذلك بما اتدلل والخفر .

وها هي الساعة تفكر من جديد ما عساها أن تفعل ولم يبق على حجيئه غير ساعة أو أقل ، واحتج قلبها على ضعفها وترددها وصح عزمها على أن تصارحه على مسمع من أهلها بكراهيتها غير راغبة في الزوج منه . وليكن ما يكون . إنه يقضى اليوم كما ملا عندهم أحياناً ولا يؤدي فريضة الصلاة .

أوه ... لشدة ما هو لها أن تتزوج برجل لا يعرف الله حقاً ... إن أحاسيسها تشور بحماسة وكراهية عميقة! عندما أدخلوها مرغمة، دخلت واجمة وقد شحب وجهها المتورد وسكن قلبها الجياش وترددت . ثم أحجمت حيث طغى عليها ضعف الأنثى واضطرت أن تدعن للإرادة الحاكمة فلما أخذت مجلسها ذهبت أن تصالحه بل صعب عليها أن تتكلف بسمه أو ترفع نظرها إليه ، مما حدا بشقيقتها أن يعنمها لسوء تصرفها وعدم القيام بواجب استقبال ضيف عزيز على الأسرة .

ولزمت الصمت مطرقة كأنها معترفة بأنها مخطئة . وقد شفع لها الزائر بقوله . إن الخجل النسوى جميل ومحبوب وهو يقبل على العين والرأس .

ولما انصرف أفراد الأسرة كل لشأنه وبقيت هي في مكانها لا تجرؤ على النطق ولا تقوى على الكلام من فرط ما يحتاج في جنابات نفسها من شتى الإحساسات البغيضة !

وشعر هو بخلو الغرفة إلا منهما تهلل وجهه وكانت له ابتسامة تكشف عن أنياب زرقاء، تبعث التقرن من مكمنه وتولد القشعريرة في البدن فتود لو تغمض عينيها للأبد فلا تراه ، ولكنه كان يعتقد بأن ثروته الطائلة وجاهه العريض جديران بأن يقربا إليه كل الحسان والغواني .

وقد ظل يتحدث إليها وهي سارحة تائهة في دنيا غاندى حيث تتأمل صورته كأنها جالسة معه وحده وكأنه لا يوجد بجانبها رجل يصورها لها ماشاء من أقاصيص تصوره ملكا للسخاء والجود والبر ، فلبك فلان من صنع يده ، والباشا فلان مدين له بمبلغ ألف ويزيد من الجنيهاً والبارحة دفع خمسين جنيهاً تكاليف عشاء لبعض العظماء دخلوا عليه في المطعم وهو يتناول الطعام .

فاذا فاض سخطها للبالغة الكاذبة تقاطعه :

لم هذا الإسراف المشين ماداموا دخلوا عليك بغير دعوة ؟!

فبيّتهم ابتسامته البغيضة قائلاً: المجاملة يا أنسى ومركزى يقضى على
بذلك تعودت أن أكون صاحب الفضل دائماً وكرماً مسرفاً في الكرم.
فاذا دخلت عليها صديقة وهو جالس انتقل إلى حديث الأزياء
ليفهمها أنه خبير بأذواق النساء وأنه اشترى منذ أيام معطفاً لأخته
بمائة من الجنيهات ، وفي نيته أن يقدم لعروسه ملابس لا تقل قيمتها
عن ملابس الملكات ، فإذا جرى حديث الرياضة يقول ، إنه اعزم
أن يشتري أنخم سيارة ليقدمها إلى عروسه في عيد ميلادها ثم ينتقل
في لباقة إلى الحديث عن القصور والحدائق الغناء مصوراً القصر الذي
بدأ يشيده وفقاً لمزاج عروسه وهو حريص على أن يختار لها كل
ما تحلم به العروس من أثاث ورياش وتحف ثمينة . ولقد كان مثل
هذا الحديث كافياً لكي يجذب قلوب العذارى اللاتي يحلن ويطمعن
في الرفاهية والجاه . وكثيراً ما كان يضيف على عقول صديقاتها اللاتي
يحضرن مجلسه لونا من الهجة المشوبة بالحسد الدفين ، ولطالما سحر
ألبابهن فإذا أظهرت نفورها منه عاتبنها وأفهمنها أنها مخطئة وأنه يجب
ألا تدعه يطير من يديها فكثيرات يتلفن للزوج برجل دونه
فما باله هو وهو جدير بأميرة من الأميرات ، وبالرغم من ذلك
لا يتحرك قلبها ولا تميل نفسها ولا تهفو روحها ، بل تزداد كراهتها له
ونفورها منه لسبب لا تدريه رغم اعترافه بأنه أزهرى وكان المفروض
أن يكون من هيئة العلماء وهي تعجب . كيف تعجز تعاليم الدين

المكتسب عن خلق روح مؤمنة عالية . أنه لا يتعفف على الصغائر
ويتمتع بالحياة استمتاعا لا ينتمى إلى الدين والفضيلة بصلة . وإن كان
يخفى ذلك وراء حديثه الديني المنمق وزيه الأزهرى الممتاز . كان
ذلك يشغل تفكيرها وهو يتحدث فلما انصرفت الصديقة قال :
كم كنت مشتاقا إليك . إن اليوم الذى يمر ولا أراك فيه . لا أحسبه
من عمري . فما بالك بأسبوع كامل لم أرك فيه . إنه دهر طويل
مظلم أقاسى فيه من الوحشة ما يكاد يفقدنى صوابى . وأنت ألم تشعرى
بشوق إلى ؟

فهزت (هندية) رأسها فى فتور واستخفاف ونظرت إليه
بلا اكتراث قائلة : إننى أعيش مع رنى فاذا أعطيته حقه كاملا عشت
مع غاندى أفهم منه ما استعصى على فهمه فى الحياة ؟ ! فأخفى غيظه
بإشعال سيجارة ينفث دخانها فى غيظ واضح مفكراً فيما يجب أن يقوله ثم
قال فى استخفاف : يبدو أنك اتخذت من غاندى لعبة مسلية . المهم .
طبعاً تعلمين أنى جئت اليوم لنحدد موعد عقد القران . فذهرت
لهمكه من غاندى وقالت فى حدة بل اتخذت منه أستاذاً أحبته ويبدو
أنك لا تعرف مبلغ ولهى به وإننى تزوجته زواجا روحيا ولا أرتضى
به بديلا فضحك فى غيظ واستخفاف واضح قائلاً . أن للهنود
شعوذة وسحراً . فهل تراك ممن يتأثرون بذلك ؟ إن كان الأمر
كذلك فأنا ساحر خطير !

قالت في جد: أرجوك . أنا جادة فيما أقول . فلا تشوه جلال غاندى القديس بذلك .

فاضطجع في عطرسة وانتفخ كالطاووس كما أنه يقول : أنا هنا وهو هناك أنا الواقع وهو المحال ثم ابتسم قائلاً : سأسمح لك بالسمر في هذا الحديث بعد عقد القران . إننى أعرف أقاصيص هندية كثيرة طريفة جداً أما الآن فقد جئت لأسمع منك أنك تحببني كما أحبك ! فقالت في هدوء : كلانا لم يخلق للآخر .

ثم أطرقت لحظة لتغالب نفسها ثم أردفت: أرجو ياسيدى أن تستمع إلى جيداً لتفهمنى وثق بأن ما أقوله لك حق وصدق ولا تنتظر منى أن أخدعك طمعاً في جاهك ومالك ، أن جوهرك غير مظهر . وهنا سكنت لحظة لتغالب حياءها وتهيبها ثم تشجعت وجمعت قواها مردفة : أنا لا أحبك ! قالتها بجرأة وشجاعة كأنها ألقت قنبلة ، أقسم لك ، لا أحبك ولا أستطيع أن أحبك .

وجم الرجل برهة ولم يحرك ساكناً ثم تمالك نفسه قائلاً بلهجة خالية من الدعابة : يا حبيبتي ، أمامك أمران لا ثالث لهما ، إما أن تقبليني زوجاً أو تريحيني من حياة لا أمل فيها وذلك لا يكلفك أكثر من حركة سريعة من يدك البهينة اللطيفة ثم أخرج مسدسه ووضعها أمامها متكلفاً العزم والشجاعة مردفاً : لا تترددى فحياتي بدونك

لا تطلق وموتى بيدك أحب إلى من موتى بعيدا عنك ، قولى كلمة واحدة فيها الموت أو الحياة بفمك أو يدك . إن أبرز ميزاتك الصراحة والشجاعة . فقولها كلمة صريحة . .

ذعرت (هندية) وهالها الأمر وأطرقت مفكرة حائرة وقد غامت عينها بالدموع واسودت الدنيا فى ناظرها ونظرت إليه نظرة خاطفة فإذا بوجهه ساهم شاحب وقد اطبقت شفثيه كأنه يخنق صراخ روحه وضجيج قلبه وارتسمت على جبينه خطوط كاهها كدات اليأس المروع وفى عينيه بريق الرجاء المرتقب ، ومر بذهنها قوله ذات مرة إنه قطع شرياناً فى ذراعه ليموت حين غدرت به فتاة أحبها وبذل فى سبيلها ماله ووقته وقد أنقذ من الموت بمعجزة .

حيات هذه الذكرى وذلك الخاطر أشفقت عليه وترفقت به وخافت منه إذ قد ينفذ وعيده ويقتلها ثم يقتل نفسه إذا بدا له أنه سيفقدها حقاً للأبد ، وشاءت أن تتكلم فأرتج عليها الكلام فظلت مطرقة تفكر فى حيرة واضطراب وقلق وخوف ، وعاد الرجل يقول فى جد ورزانه ، كلمة واحدة لا تكلفك جهداً يا مولائى ، وكذلك رصاصة واحدة فى هذا القلب الذى يعيش من أجلك ، فى الكلمة حياة ، وفى الرصاصة راحة ، وأنا راض بالحالتين !

فتهدت فى مرارة وقد غسلت دموعها وجهها وقالت والدموع تغالب صورتها والالم الممخن يخنى أواخر النماظها : أنا فتاة تعسة خلقت

لعذاب نفسي وعذاب الآخرين فقاطعتها : بل أنت نور في الأفق وأنا
أريد أن أحبس هذا النور داخل صدري فاذا لم أستطع فلا حبسه في
بيتي بعيداً عن الناس أجمعين . إني أغار عليك منك . وأحسد كل
ما تمسه يداك وتطأه قدماك وينعم بشذى أنفاسك ، هنا غالبت أساها
وقالت في دعاة لتهون عليه : الله خلق النور للدنيا كلها
فاستراح للهجتها الهادئة وبسمتها البادية وظنها بدأت تلين فقال :
يا مولاتي لا تنسى أنك امرأة خلقت لرجل واحد وأنا هذا الرجل
فاذا بدا لك أنني لست أهلاً لأن أكونه فما عليك إلا أن تطرديني
من جنتك بهذا وأشار إلى المسدس في إصرار قال ذلك بلمهجة المغيظ
القائظ ثم زفر زفرة أسي ولوعة وصعب عليه أن يخفي خواطر السوء
التي تجول برأسه فارتسم على وجهه بوادر الشر ولاحت واضحة نية
السوء نخافت وارتجفت وتكلفت الهدوء ثم قالت وهي تغالب
دموعها : كيف أكون قاتلة وقد خالقني الله - كما أعتقد - رسول رحمة
وسلام ، ولجأة تراءى لها خاطر غريب فاعتدلت في جلستها ووضعت
رأسها بين يديها وشاءت أن تنظر إليه لتسكّم ولكن صعب عليها
رؤية وجهه إذ أحست بأن النفرة التي سيطرت عليها أعظم من أن
تقاوم فتشاغلت بمداعبة منديلها وقالت : وهل تحبني للحب أم للزواج ؟
قال : أحبك للحب وللزواج معاً .

قالت : يبدو أنك لم تفهم مقصدي ، أعني أتحب قلبي أم جسدي ؟

قال : أحب قلبك وجسدك وأحب كل شيء فيك .

قالت : وأنا أحب زوجي كغاندى . . الجنسية عنده شيء ، تافه
تستطيع أن تستغنى عني إذا مرضت واضطرتني الظروف إلى إعدام
القيام بواجب الأنثى . وأنت مع الأسف ككل مصرى تغلب عليك
شهوة البدن أكثر من متعة الروح . وأنا أكره ذلك .

فكظم غيظه وقال : أتريدن أن تكوني إلهاً تحرمي ما حله الله .
قالت : بل أريد أن أطهر البدن من الغريزة . إنها تجلب الخيانة
والغدر ، لقد لاحظت منذ جئتنا وعرفتني أنك تحبني أبداً ضاحكة
طروباً وبروعك صمتي وحزني ، فأنت إنسان كما فهمت لا تفهم لغة
الصمت ولا جلال الأسى ولا روعة الفكر وعمق الإحساس .
إذ لو كانت روحك كروحي لعرفت لغة صمتي ومعنى حزني
وعمق وجومي . لذلك أرى أنك جدير بفتاة - مريحة طروب تبعث
المسرة أبداً في دنياك .

فقاطعها : لقد انتهينا من هذا البحث منذ عرفتك . ولكي أوفر
عليك جهد الحديث في هذا الأمر أخبرك أننا اعتزمنا بمشيئة الله على
عقد قرانك في آخر هذا الأسبوع ونظر إلها ينتظر الجواب .
فروعت كأن قبيلة تنزلت عليها فخطمها تحطما وشامت أن تصرخ
في وجهه محال ، محال إنى أكرهك . ووقفت لتلقها ثم تخرج هاربة
قبل أن ترغم على تنفيذ هذه الرغبة وهي في نظرها كالأعدام

تماما. وأوشكت أن تحرك شفيتها وكان نظره عالقا بها يتأملها ولما فهم ما يدور برأسها لوح لها بالمسدس منذراً قبل أن تلقى الحكم الأخير . فعاولدها الخوف والاضطراب وارتمت على المقعد في إعياء وهي تلمث في عناء ثم قالت بصوت متقطع الكلمات : إنني مريضة، مريضة جداً . وأخفى مرضي لكيلا أزعج أمي إذ تعلم أنني وحيدتها ومجرد شكواي من أي ألم بسيط يقلق مضجعها .

فدعر وقال : أطباء الدنيا كلها في خدمتك ووقف وهو يقول : أي ألم يضايقك ؟ إن ثروتي تحت قدميك . ثم راح ينظر إليها في شراهة وهو يغمغم هذا الجسم الغض الفتي . يمرض . لا كنت في الوجود إذا أحس بأى وجيعة فتكلفت بسمة فائرة وقالت : إنه إذا مرض أعرف كيف أداويه . ولكنه يحتاج لمدة عام على الأقل . قال : على كل حال يجب عقد القران لكي أكون مسؤولاً عن صحتك . فقلت : شكراً .. شكراً .. إذا كنت تحبني حقاً .. أجل عقد القران ريثما أتعافى .

فقال في إصرار واحتجاج : لا يمكن التأخير ولقد انتهيت مع أهلك . قالت : هب أنتي طلبت ذلك لأتأكداً من حبك ؟

قال : يا صغيرتي . أنت لا تفهمين الحب بقدر ما أفهمه أنا . الحب الحقيقي هو أن أهني لك أسباب الراحة والرفاهية والسعادة والمتعة ثم حز على شفتيه كالمجنون وقد بدا في عينيه بريق الرغبة الطاغية وتمتم :

متى أضحم هذا الجسم إلى قلبي وأشعر أنه ملكي .. ملكي أنا
وحدى .. لا شريك لي فيه .

فقاطعته لكيلا يسترسل في هذا الإحساس السخيف (كما تعتقد)
وقالت : أنت لا تحب . ثم ابتسمت في سخرية مردفة : تحب جسمي .
يا للهول هذا ما تبقى لي من آمالي وأحلامي ! أنا ابنة غاندى وتلميذته .
ثم خفت صوتها وهي تغمغم ، آه ليتنى أستطيع أن أمحو من الوجود
هذا اللون العجيب من الحب الشهواني المرتطم بروح عف ظهور ،
ليتنى أستطيع أن أخفف ألحان البدن الثائر لكيلا تستجيب إليها النفوس
لقد تعودت أن أطالع الناس بصور ذات ظلال وأضواء فيها حرارة
ونداء ، ولكننى لم أعرض عليهم بعد صورة اللهب الوهاج حينما
يحاول تقبيل الزجاج ظناً منه أنه ثلج لكي ينصهر ويندوب .
ثم عادت إلى نفسها وإليه مردفة :

أوه . مالك وهذا الهذيان . إنه لون من الجنون يعتريني أحياناً .
إنه المرض يعاودنى من آن لآن ، وأخشى أن يشتد ، فأحطم الزجاج
ظناً منى أنه ثلج يبعث البرودة في شرايىنى ، وقد تشتد حمى الجنون
فأحطم كل ما يقع عليه نظرى حتى أنت ، أما الآن فإننى عاقلة . عاقلة
جداً .. وأحب أن أنتهز فرصة هدوء هذا العقل لكي أقول لك إن
أبغض ألوان الحب عندى .. ذلك الحب الذى تنبعث شرارته من
البدن .. إذ الحب عندى كالإيمان تماماً هو مظهر من مظاهر العبادة .

فيها حرارة وخشوع يطهران النفس من أدرانها ويساعدان الروح على السمو لتبلغ مصاف الأولياء ، هذا الحب هو الذي يدفعك إلى عمل كل ما يرضى الله والضمير فهل تظن قتلى أو قتلك إذا رفضت يدك يرضى الله ؟ على أن ذلك لا يعنيني لأن الله لن يأخذني بذنبك .. هنا قاطعها .. غداً تغرفين مدى حبي وإخلاصي وتدرकिन ماتجهلين . قالت : آه نسيت أن أقول لك إن مرضى يحول بيني وبين قادية واجبي كزوجة لك عليها حقوق مشروعة ..

قال : قلت لك إن الطب كله في خدمتك وإذا عجز أطباء مصر فسوف أستدعى لك أشهر أطباء الخارج . هنا وجدت الخلاص منه متعذراً .. فسكتت لحظة ثم قالت : إن أتزوج حتى تنفذ مشيئتي . وإلا قتلت نفسي إذا تضافرت على إخضاعى ؟ قال : ماذا تريدین ؟ ..

قالت : تكون كغاندى ، تؤدي رسالته وتقوم بمهمته على ضوء تعاليمه وفلسفته وحبه للخير والسلام .

قال : يافئاني .. الخيال شيء والزواج شيء .. تحدثني ماشئت عن الخيال .. أما الزواج فلا سبيل إلى تحقيقه إلا بالعمل . ثم ابتسم في تهكم مردفاً : ثم من ذا الذي قال لك إن غاندى إنسان جدير بأن أتشبه به . أنا الذي يتشبه به الرجال ؟ !

قالت أنت مغرور .. غاندى قديس وروح عظيم . والآن لن

تعتقد على إلا بعد عام كامل في مثل تاريخ هذا اليوم على شريطة ألا ترانى خلال هذا العام على أى وجه ..

قال : هذا وهم بعد أسبوع كما اتفقت مع أخيك .

قالت : لا تكلف نفسك جهداً . لا بد من تنفيذ مشيئتي ، لن أتزوج إلا بعد أن أتأكد من أنك رجل خير وعمل وإحسان وإرادة . إن الرجل الذى يعجز عن ضبط مشاعره وكبت شهوته خائر ضعيف لا يؤتمن جانبه ثم هزت رأسها ومطت شفثيها مغمغمة : إنك تتمسّدق بالخير لتغري العامة على التعلق بك والخير عندك هو عمل ما يعود عليك بربح مادي وكل امرأة تحرك شهوتك ولشد ما أحقر هذا اللون من الرجال .

فاحتد قائلاً : هذه إهانة ..

قالت : في جد وعنف ، أنتكر أنك تقضى الليل ساهراً في ملهى أو حانة أو مرقص ؟ أقضيت ليلة واحدة متعبداً أو قائماً على رعاية بائس أو إنقاذ ملهوف أو التفكير في شأن من شئون المجتمع والوطن ، أنت من ذلك الطراز الذى يعبد المادة والمتعة ويعيش لهما ، شأنك شأن كل غنى يعيش ليأكل ويشرب وينام ، وأنا ياسيدي في حاجة إلى رجل كغاندى عفاً عامل رحيم فروض نفسك على ذلك .. كن عذيري إذا رفعت لك الستر عن حقيقتك ، إن نفسك ضعيفة وروحك مريضة وإيمانك قليل ، وقلبك ضال فحاول إذن أن

تخلق نفسك من جديد لكي تجذب قلبي أو القلب الذي تهواه ، قد يبدو كلامي قاسيا . ولكن رغبتي في إصلاح حالك تدفعني لهذه الصراحة فمعدرة ، على كل حال جرب حياة غاندى وسكتت ثم تحركت لتخرج .

فاستوقفها معترضا طريقها قائلا : لم ننته بعد .

قالت : بل انتهينا فنفترق الآن ، على أن تحضر بعد عام واحد على شريطة أن تنفذ مشيئتي ، وخرجت مسرعة .

فتركها تخرج ليخلو إلى أخيها كي يتفقا على عقد الزمان رغم أنفها لاعتقاده أن البذل الذي سيبدله في سبيلها كاف لإخضاعها . ولكنه لم يجد الشقيق ووجد الأم مشغولة مع بعض الزائرات . فخرج على أمل أن يعود بعد يوم وترك للأخ رسالة .

مراوغة

لما فهمت (هندية) من الأسرة أنه لا بد من عقد قرانها ، لم تشأ أن تظهر لهم الرفض المطلق تمعنا في تنفيذ فكرتها . وفي اليوم التالي تمارضت وذهبت إلى الطبيب . وكان طبيب الأسرة يعلم ما تعانيه نفسانيا من جراء علاقتها بالمثل العليا . ولم تكذب تهاداً بقرب الطبيب حتى أخبرته بأمورها ووضعت حياتها بين يديه وطلبت إليه باسم الإنسانية أن يساعدها على تأجيل هذا القران بدعوى أنها

مريضة والزواج يساعد على زيادة المرض ويجب ألا تتزوج إلا بعد تمام الشفاء . وكان الطبيب يحمل لها في قلبه حباً أكيداً فارتاح لذلك ورأى أنه سيطيل من مدة التمتع بفكرها الحر وعواطفها الحاملة عاماً آخر قبل أن يزج بها إلى زواج ترى فيه سجنها فيحرم من التمتع بروحها التي يهواها ، إذ لشد ما كان يتمنى أن يكون مسلماً ليتزوجها أو يكون أعزب إذ أن زوجه وأولاده الأربعة يحولون حياته إلى جهنم . لو ترك دينه ليتزوجها . أوليتها غير مؤمنة عريضة في الأيمان ليسهل إقناعها للتزوج منه لو ضحى لذا كان يغالب هواه ولم يجرأ على الإفصاح عنه إليها إلا عن طريق تداويها إذا مرضت والاهتمام بصحتها .

وهكذا نفذ لها مشيئتها ، وتم لها ما أرادت وأجل موعد قرانها بعد عام حتى يتم لها الشفاء ويتأكد الطبيب من عدم عودة المرض ، (هكذا أوهم أهلها) .

على أن ذلك أغضب الرجل وثار رغم محاولة الأم في تهدئته وخرج غضبان .

وفرحت (هندية) إذ أيقنت أنه خرج لغير عودة . على أن الأسرة تألمت جد الألم لخروج الخطيب غضبان رغم ما بذلوه من ترضية وقد مر العام عليها وهي لاهية عن الرجلين بالتفكير في غاندى والرغبة الصادقة في أن تسافر إليه لتعيش بقربه مادام قد عز على الحياة إيجاد رجل يماثله رغم ما كان يصلها بين الحين والحين من رسائل

الخطيب الأول الذى راح يفكر ويدرس ويبحث ويعمل ليكون
عندياً كما أرادت أن يكون .

ورغم ما كان يصاها من وفير الرسائل من المحبين والمعجبين الذين
يرونها فى الطريق أو المجتمعات أو يرون آثارها الفنية هنا وهناك .
وهكذا ظلت معتكفة فى محرابها يخامرها تفكير مخيف عن مستقبل غامض
مجهول ، تخلو إلى قلبها لتسأله : أيها القلب البشرى الضعيف العاجز
المجبول من تراب الأرض . يخيل إلى أن الله خلقك من اللهب ولولا
نور روحى الذى يلطف من حرارتك لا احترقت وأحرقت غيرك .

أيها العصفور الصغير ، سجين الجسد ! كيف تود الانطلاق فى
السماء وأنت مهين الجناح ! وكيف السبيل إلى التفريد وأنت
حبس الأنفاس ؟؟؟

كف يا قلبى عن التنى ، فالحنين لا ينفعك إذ لم يوجد بعد
من يسمعك وحبيبك الذى اصطفيه بعيد ناء يجهلك ويبدش فى
دنياه . ثم تبكى بكاء مرأثم تهدأ متفائلة مغممة : إن إيمانى يشعرنى
بأنه لن تطول غربتك ولن تشدد كربتك ولا بد أن ترى النور بعد
انقشاع الغيوم وتصمت لتبكى حائرة متبرمة إذ يصورها خيالها خفقان
قلبها كلاماً وأنىنا وصراخاً بمعنى : أنا ظامى . أنا ظامى إلى النور
غامر دافى .

ثم تعاود البكاء، مخاطبة صوتها بصوت مخنوق : أيصعب على
العشور على منهلي الكوثرى وموردى الشهى ، ثم تشتد أزمتهما
الشعورها بالخلو المطلق ووحدتها المروعة فنصرخ بغير صوت . .
صرخة تدوى فى جنبات صدرها : أين هو ؟ أين هو ؟ إنه هناك
فى الهند فهلا يوجد مثيل له هنا فى مصر عند ضفاف النيل يبحث
عنى ؟ ألا يوجد هناك فى الصحراء أو عند الجبل الراصد حيث
يمتد طريق الصعيد أو هناك وراء البحار ؟ . أين هو يارب ؟ أترام
يبحث عنى كما أبحث عنه ؟ أترام يستمع إلى صوت كل أنثى ليسمعنى
فلا يجدنى ؟ ويتأمل وجه كل عذراء عليه يرانى فلا يلقانى ؟ إنه يبحث عنى
فى الرياض وفى الأدغال ، فى الواحة وفى الصحراء . عند النهر وعند
البحر . فى كل مكان وفى كل زمان . ويسأل عنى اليوم والغد . .
يسأل عنى ما يدب على الأرض وما يخلق فى السماء . . كما أبحث عنه
وأسأل عنه . فأين هو ؟ وأين أنا منه ، ومتى نلتقى يارب ؟ .

وهكذا مضى العام وهى تجمع بين التفكير فى غاندى وبين ما ترجيه
زوجاً مماثلة كأنه هو . باحثة عنه أثناء صحوها وإغفائها . دون أن تخلو
فكرة أو خليجة منه . حتى أوشكت أن تترك دنياها المحدودة وترحل
كالرحال تجوب فى كل بلد لتبحث عنه ؟ وقد كاد العام أن ينصرم
وهى على حالها بين مطرقة العاطفة وسندان العقل تتحمل العذاب
صامتة صاغرة ولا تجد فى العالم كله من تبثه لوعتها راغبة فى أن تترك

دارها وتذهب بعيداً إلى مكان ناء ، في الصحراء أو في الصعيد أو في الريف ولكن أين الشجاعة التي تحطم التقاليد وتصرخ الأوضاع .

« بعد العاصم »

قيل لها لا بد من تحديد موعد لحضر الخطيب الذي ارتضاه أهلها لها فلم تشأ ولكنه حضر صدقة في اليوم الذي حضر فيه الرجل الذي اختارته لنفسها بعد أن ثبت لها أنه نفذ مشيئتها ولما كان الميعاد المحدد له حضر الخطيب ودخل عليها حيث كانت جالسة تفكر فيما يجبئه القدر لها ، دخل وهو يتيهز هوأً وعجباً كأنما هو نابليون أو خالد بن الوليد دخل عليها وقد أخرجت الفرحة لسانه فلم يستطع مخاطبتها وكان يأمل أن يلقاها على غير ما تركها ولكنه وجدها كعادتها تبسم ساخرة وتتكلم كالخالة وتضحك كالتائهة وتصمت كالمنكرة ولم يكذب يأخذ يأخذ مجلسه بجانبها حتى دخل الخادم معلناً مقدم زائر . وكاد الرجل يأمر ألا يسمح له بالدخول ولكنه أسرع وأذنت له . وقبل أن يسألها من يكون ؟ كان الزائر بين يديها يصافحها في زهو واضح كأنه جاء من غزو ظافر بعد جهاد طويل ، ودهش بدوره إذ لمح في حضرتها إنساناً غريباً . وكان يأمل أن يراها وحدها وقد سبقته رسالته : فلما أخذ مجلسه بعد أن حياها قدمت كلاهما الآخر في إيجاز وتحفظ وبدأت الفيرة تلاعب صدر كل منهما وكلاهما

يخفيها بالكلام المبعثر الذي لا يرمى لهدف خاص . وقد نظر إليها كل منهما متسائلا دون كلام : من هذا ؟ . ولم حضر الآن ؟ . ولم استقبلته ؟ ألسنا على موعد ؟؟ .

آه . لو لم تكن فنانة ، يفتح فيها الباب لكل طارق جدير بدخول معبدها حريصة على ألا تفتح الباب إلا لمن تتوسم فيه الطهر والسكال لكنها تجبر أحيانا تحت ظروف خاصة إلى فتح معبدها للجمالة أو لترضية أهلها أو لمصلحة عامة معتمدة على إرادتها وحرصها وحصانتها ، ولولا ما عرف عنها من عفة وطر وقوة وعملها على تلقيع النفوس بفنها الرفيع . لما غفر لها كل من هذين الرجلين في هذه الساعة ان تقابل أحدهما في حضرة صاحبه ولولا الثقة الأكيدة فيها . لتحول الموقف إلى مالاحمد عقباه ، على أنها استطاعت أن تشغل الوقت بحديثها لكيلا تدع لها مجالا للتفكير المرير ، متحدثة عن الحرب والشئون العالمية . متعمدة عدم الحديث في العاطفة والزواج مع أنها تعلم أنهما جاءا من أجل غرض واحد وكل منهما يظن أنه زوجها المنتظر وحبيبها المرتقب وبعد أيام تكون له وحده وطال الحديث وكلاهما يترقب انصراف صاحبه : وهي حريصة على ألا يتحدثا إلا في الأحاديث العامة على أن خطيبتها المزعوم كان أقل صبرا من زميله فقال : لقد ازعجناك ولكن الذنب ذنب أخيك . لقد ظننت أنه في انتظاري وحاول أن يوهم رفيقه بأنه من اللائق

أن ينصرفا وتحرك في مجلسه كمن يهيم بالانصراف وكأنه يتأهب للاستئذان ولكن صاحبها كان أمكر منه فقال : إن لي مع أخيك أمراً يضطرنى إلى انتظاره .

قال الأول : وما ذنب الأنسة لاشك أنها ضاقت بنا .
وقال الآخر : إنها صريحة تعرف كيف تتخلص منا إذا شاءت .
وهنا وقفت الفتاة وهى تبسم قائلة ، لحظة ، وخرجت لأمر ما . . .
فأشعل (الخطيب) سيجارته ونفت دخانها ببطء وزهو ثم اتجه نحو الزائر قائلاً : حضرتك صديق أم قريب للعائلة ؟
قال : صديق ، وحضرتك ؟

قال بصوت بطيء فيه غطرسة وغرور . . . أنا خطيب الأنسة وإن شاء الله ندعوك قريباً لحضور الزفاف . فانتفض الصاحب مأخوذاً وكأن صاعقة ، تنزلت على رأسه من السماء وشعر فى التو بأن الدنيا تدور به ولكنه تجلد واستجمع قواه مواريده شتته مغمغماً بصوت خافت متكسر كأنه يتحسس موضع ماسمعه من نفسه متلبساً صداها من أذنيه : حضرتك خطيبها ؟

قال الرجل فى تيه وكبر : أو لا تعلم ؟ منذ عام .
فردد الصاحب مبهوتاً مأخوذاً : منذ عام !
وهنا دخلت الفتاة فلم يكذب يراها الصاحب حتى وقف وهو يرمقها فى احتقار وحقد وقد ارتسم على شفتيه ظل الغيظ القاتل وغالب

دما ألم به من شعور طاغ قائلاً بصوت الحائق الناقم مكيفاً لهجته بنبرات
السخرية : أظن تهنتى جاءت متأخرة يا آنسة ؟
فدهشت الفتاة وقالت : علام ؟

فأعقب الخطيب المزعوم : حضرته لم يعلم بخطبتنا غير الآن ؟
فكظمت الفتاة غيظها قائلة في شبه دعاية : أوه حضرته يميل
للمزاح أبداً .

والكن الخطيب أردف مؤكداً . لم يعد مجال للسكتان . أرجو
دعوته لحضور عقد القران مادام صديقاً للعائلة . فلم يتمالك الصاحب
نفسه وخاف ان تفضحه عواطفه فصافح الخطيب قائلاً : مبروك
ثم هرول ليخرج مردداً في فتور دون أن ينظر إليها :
تهنتى يا آنسة . وخرج يعدو مسرعاً رغم محاولتها استبقائه .
وهنا جلست وقد تملكها الغضب مخاطبة الرجل : بأى حق
تتكلم هكذا ؟

قال : أتتكرين أنك خطيبتى وبعد غد تكونين زوجتى .
قالت في ثورة : لم أقبل بعد وإن أقبل أبداً .
ثم ابتسمت متحدية في مرارة وهي تغادر مقعدها . تباراً للأغبياء
الكان الحظ في خدمتهم ثم التفتت إليه متبرمة مردفة : إننى متعبة ولم
أكن على استعداد لمقابلتك اليوم .
فضحك الرجل في استخفاف قائلاً : قد انتهى كل شيء وإرادة

الله نافذة فقالت : إن الله لا يشقى عبده ولا يكتب أمراً فيه تعاسة
لخلقه . إننى لأحبك . بل أكرهك . إنك جبان من جاء بك اليوم ؟
قالت ذلك فى ثورة جنونية . إذ بدا لها أنها فقدت صاحبها إلى الأبد وقد
كانت تؤثر عليه وأرادت أن تطرده لغير رجعة . وليسخط عليها مع من
يشاء من أهلها وتركتهم مسرعة . وخرجت متسائلة خفية من الدار .
خرجت وفى نيتها أن تلحق بصاحبها وتصارحه بالأمر . ولكنها لم تؤكد
تسير فى الطريق وتبتعد عن وجه الرجل الذى تكرهه حتى تنفس الصعداء
عندما صافح وجهها الجو الخارجى المنعش الطليق شاعرة أنه بعث فى
صدرها إحساساً لطيفاً رقيقاً نبه الحس من غفوته وأيقظ العقل من هجوعه
ونجاة توقفت عن السير لتسأل نفسها : إلى أين ؟ .

ومر بخيالها طيف صاحبها الذى خرج من دارها غاضباً ثائراً
ناقماً حاقداً وصعب عليها أن تخرج على هذه الصورة . فهل تلحق به
لتسترضيه ولكن كيف ؟ أم يمكن أن تتحرر من كبريائها وكرامتها ؟
إن الحب ليس كل شيء عندها . الكرامة قبل كل شيء . فهل تراه
يستحق ؟ . أترأه أصبح صورة ممثلة لغاندى حقاً ؟ إنه أحسن من
غيره على أى حال فى مقدوره أن يكون . آه لقد قتلتته بغير سيف
دون رحمة فما ضرها لو أعادته إليها لتفاهم معه من جديد فقد يحتمل
أن يكون أصبح إنسانياً مصلحاً ممثلاً لغاندى ثم كيف تكون غادرة
خائنة ؟ وموقفها منه اليوم يضعها فى هذا الإطار الشائن الذى لا يليق بها

وهكذا ظلت خواطر السوء تساورها وهي في طريقها تائهة لا تدري هل تذهب أم تعود؟ شاعرة بكرهية مروعة لكل ما يحيط بها وقد تجسست هذه الكراهية عندما تصورت ذلك الرجل القابع في منزلها يتربقب عودتها بلا ريب لينفذ مشيئته ..

ولم يجد مناصاً من الهروب فذهبت إلى قريبة لها لتقضى عندها بعض أيام حتى تقنع أسرتها بضرورة رفض هذا الرجل .. ولما عادت إلى منزلها بعثت إلى صاحبها رسالة موجزة :

« لقد خرجت مسرعاً قبل أن تسمع كلامي تعال فعندى ما أقوله لك . » هندية

وانتظرته في منزلها بعد أن سافر الرجل لغير رجعة على أثر رفض أسرتها نزولاً على إرادتها وخوفاً من تنفيذ ما وعدت به مؤثرة الموت على الحياة بجواره حيث كان شقيقها يحبها الحب كله وينزل على إرادتها دائماً ويقف بجانبها في الملأت لذلك ناصرها على أمها وباقي أخوتها .. واعتذر للرجل في لطف اعتذاراً فهم منه الرفض البات ..

وجاءها الرسول يحمل إليها رسالة من أخته .
عزيزتي :

أخي « إهاب » لا يستطيع مغادرة الفراش .. تعالي فإني في حاجة إليك ...
« إبتسام »

نسيت (هندية) كل شيء إلا أن صاحبها مرض بسببها . فعز

عليها لأنها لا تكرهه وإن كانت لا تحبه الحب العنيف كما تحب غاندى .
آه ليتها تستطيع أن تحبه مثله . وقضت اللياقة أو على الأصح عاطفة
الرحمة أن تحملها على عيادته فذهبت إليه على أمل أن تتفاهم معه ليتعافى .
ولما دخلت عليه وجدته مستلقياً على فراشه وقد أخفى وجهه
بالملاءة عن عمد أو غير عمد لا تدرى .

دخلت عليه محجبة وثيدة الخطى خفيفة الحركة لتفاجئه وكان قد
أغلق نوافذ غرفته كأنه لا يريد أن يرى النور لينسى معه ما يثير
الشجن والذكرى أو لعله يحول بينه وبين الطيف الذى جلب له
الأسى والضنى .

لذلك ذعر لم رأى امرأة محجبة ترفع الغطاء من على وجهه فى رفق
وهدوء ، فهاها الوجه الشاحب والأسى البادى الذى يعبر عن
لوعة مرة .. وعن الألم الممنى القاتل .

ظن أخته تداعبه فصرخ فى وجهها أجنونة أنت ؟

فلم تجب ورفعت النقاب ! فهتف صارخاً فى غير وعى (هندية)
فلم تجب وظلت تنظر إليه فى إشفاق .

فحول وجهه بعيداً عنها وهو يقول فى جفاء ! اخرجى ، اخرجى
حالا يا قاتلة .

وحاولت أن تتكلم فصعب عليها الكلام وتحول كلامها إلى
دمع مدرار .

فعاد يكرر : اخرجى .. اخرجى ثم نادى على أخته فلما أقبلت
صرخ في وجهها ، أغلق باب غرفتي على ولا تسمحى لأى كائن بالدخول
وغلطى وجهه بالملاءة ليخفى ارتعاشه ودموعه .

فاقتربت منه قائلة والغصة تبتلع ألفاظها والدموع تبلل شفثتها ..
رفقاً بنفسك وى ، استمع إلى لحظة . وهنا نسيت كل شئ حتى
غاندى بل نسيت نفسها ولم تذكر عداه .

فعاد يصرخ في غير وعى : اخرجى .. اخرجى وحاول أن
يقوم من فراشه للتي بها خارج الغرفة في ثورة . وقد ازداد احمرار
عينيه وتشعث شعره منتفضاً كالمحموم . هنا خافت أن يسمع أهل
البيت صراخه فتكون عرضة الأقاويل فانسحبت في هدوء
باكى وتركت بيته مضطرة خوفاً من الفضيحة وتفسير الموقف
تفسيراً لا ينتمى إلى الحقيقة بصلة . وعادت إلى بيتها محومة بغير حمى
ولم يكده يشعر بانسحابها حتى تنهت عواطفه في ثورة وجنون
فقام مسرعاً لينادىها ويتشبث بها وليناشدها الحب أن تعيش بجواره
للأبد ، ولكنه وجدها تركت الدار نخرج وراءها يعدو في الطريق
الذى ظنها جاءت منه . ولكنها اخنفت كالبرق فلم يجدها ، ولذا لم
يستطع اللحاق بها إذ ركبت عربة إلى دارها ، فعاد إلى غرفته المظلمة
ذاهلاً محموماً يسائل نفسه في ذهول : لم جاءت ؟ ولم خرجت ؟ . هل
جاءت رحمة به أوحياً فيه ؟ أو سخرية منه ؟ وهكذا يساورته

هو اجس مرة أليمة فراح يهذى كالمنجبول وقد ضاعفت الثورة هذيانه .
وأفقدته وعيه حتى ظن أن مجيئها حلم من الأحلام . . وما هي
إلا خيال مر به ثم اختفى ، ولكن أخته تأخذ عليه سوء تصرفه
وجفوته وإهانتها مما حملها على الخروج مسرعة ..

ويهدأ مليا ليفكر ، لقد كان قبل مجيئها يفكر في سبيل التخلص
من حبها ، فلما إذا حضرت ١٩ . لقد جاءت لتشعل النار من جديد في
قلبه شاعر أبأن النار توشك أن تأكل قلبه وأن الحرارة بلغت محه
وأنه لم يعد يملك من عقله ما يعينه على الاحتمال ..

لقد جن المسكين .. فقام في التو إلى عدة مذكرات كتب فيها
خلاصة بحثه ودراسته عن الإجرام في مصر وعلاقته بالعدالة الاجتماعية
وكان يأمل أن يطلعها على هذه المذكرات لترى مبلغ الجهد الذي
عاناه طوال العام الذي صام فيه من أجلها عن مغريات الدنيا وكان
يأمل أن يقدم القانون الذي وضع لمعالجة الإجرام في مصر إلى
المسؤولين للنظر فيه ذكرى وتخليداً لهذا الحب وقربانا لزواجهما
السعيد المرتقب أما وقد غدرت به . . فليذهب إلى جهنم وليذهب
كل شيء معها . حتى هو ؛ ثم راح يضحك كالجنون : تريدني كغاندى
وهانذا . . أيرضى غاندى أن يكون الغدر ديناً للنساء ، ثم أشعل
النار في المذكرات وهو يضحك في جنون مردداً في ذمة الحب
الخائب وراح يقهقه في ثورة متمتة ، في ذمة المثالية ؟ ثم فكر أن

ينذهب إليها ليلقي في وجهها رماد كفاحه طوال العام الذي قضاه
سجين البحث والدرس من أجلها .

وخرج مسرعاً وفي يده رماد الكتاب المحترق وفي نيته أن
يلهب النار فيها كما ألهبه في خلاصة تفكيره ، ولما بلغ دارها وجد
الظلمة الحالككة تحوط البيت وكل شيء نائم ساكن ولم يسمع من
اضطرابه دقات الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولو لم يلفح الهواء
البارد وجهه لظل في مكانه كالتمثال الصامت .

« سرابية الثورة »

ظل في مكانه يتأمل الدار وكل شيء يحيط به موحش رهيب كأنه
يسير بين المقابر متخيلاً إياها تغط في نوم عميق هنيء بينما هو يدور
كالمتعوه حول دارها تحت وطأة البرد القارس والريج العاصف
والوحشة المزعجة ، فكيف يتعذب وهي هائثة راضية مطمئنة ؟ يجب
أن ينتقم لحبه وتضحيته . أهذا جزاء الإخلاص وعاقبة الاحتمال ؟
ما عساه يفعل ليؤرقها ؟ . أيقذف النافذة بحجارة تقلق مضجعها ؟
أيتسلق الجدار ويكسر النافذة ويدخل عليها ليضربها ضرباً مبرحاً تفقد
معه وعيها بل روحها ، أينادها من الشارع بصوت كالرعد يوقظ النائمين
ليظنوا بها الضنون ؟ ماذا يفعل ليهون من أساه وينتقم لخبية هواه ،
وخيل إليه أنها تزوجت فعلاً وهي الآن نائمة ناعمة بين ذراعي

زوجها يهصر جسمها اللدن متمتعا بجوارها . وأحس بالحي غير وانية
ولا مترفقة تعصف بكل جانحة فيه إذ لم يستطع أن يتصورها زوجة
رجل كالحيوان آثرته عليه ، فراح يشد شعره في غير وعى ويصرخ
بغير صوت ويتمشى كالمخبول ، حتى مرببه الشرطى فظنه لصاً يتجسس
أو مخوراً تأثماً فاقرب منه ليتبين أمره ولم يكده يسأله : من أنت ؟ حتى
لطمه لكمة أردته على الأرض كان لا بد منها لتخفيف حدته . وعصبية
إذ كان يريد أن يتنفس على أى صورة بالضرب أو القتل ، وأعماه
الجنون العاطفى عن شبح الجريمة التى حبس نفسه من أجلها عاماً لكى
يعالج مشاكلها . وبات يطبق نظريته أن الجريمة لا تلد إلا جريمة .
وأن الشر لا يلد إلا شراً ، وها هو يعانى ما يعانى من جراء الغدر
والخدعة فكيف تلد هذه الرذائل خيراً . إن النتيجة الحتمية شر
مر بذهنه هذا الخاطر وما يشبهه من خواطر سوداء أثناء قيادة الجندى
له إلى الشرطة لينظر الضابط فى أمره صباحاً على أنه لم يستسلم للجندى
إلا بعد أن أشبعه ضرباً حتى استغاث الجندى بزملائه مستعيناً بهم
على قيادته وقد أدى ذلك إلى تنبيه أهل الحى . فأوا المعركة القائمة
وتساءل كل إنسان ما الخبر ؟؟ .

ونظرت (هندية) من النافذة فرأته . ولشد ما هالها منظره لقد
كادت تفقد وعيها بدورها ولكن بقية من رزائنها وعقلها استعانت
بهما على الاحتمال ، وتمنت فى هذه اللحظة أن تفقد كل شىء فى

الوجود إله ، وتحرك قلبها من موضعه وأوشك أن يطير خلف صاحبها الذى يحجره الجندى فى غير تأدب ، وودت لو استطاعت أن تقذف بنفسها من النافذة لتسير بجانبه أو تلحق به ، ولكن أهلها والناس والتقاليد ، وشعرت بكرامية عميقة لهؤلاء جميعا ، وبحب عميق زاهر له .

لجأت إلى أخيها وكان عودها من قبل أن تفضى له بسريرة نفسها ودفعته إلى اللحاق به والوقوف بجانبه .

ولم يكد الصبح يعلو جبين الأفق وتزدان الدنيا بإشراق الشمس وصباحة النهار حتى أقبل شقيقها يقوده فى رفق ولطف . . تنفست وأحست بالراحة بعد ساعات خيل إليها أنها عمر دهر وأحست بالطمأنينة تماودها فأسرعت لاستقباله مهيئة له جلسة مريحة ولقيها هادئا ، لكن على وجهه أثر انفعالات نفسانية مروعة فابتسمت ابتسامة مشرقة ولعلها لأول مرة فى تاريخ تعارفهما تبتسم له هذه الابتسامة التى تفيض حبا وإشعاعا ووجيا هائلا يكفى لبعث الحياة كلها فى كيانه الميت . . وأعدت له فنجانا من الشاي وأشعلت له السيجار الذى تمقته وكانت تنهيه عنه أبدا .

شرب الشاي وأطفأ السيجار فلما سأله : لماذا ؟ نظر إليها ولم يجب . فأدركت أنه عاهدها منذ عام على تركه وقد فعل ، فأطرقت فى خجل وندم ، وشاءت أن تهون عليه وتخرجه من صمته فقالت :

رأيتك في منامى الليلة تركب جواداً وتقود الجماهير إلى نبع على جانبيه
أشجار البنفسج وقد أنعش الشذى الوادى فتغنى بأهازيج هتاف الجماهير
ثلقائد المصلح . كان صوتها مفعماً بالحنين وقد طغت على مشاعرها
الطاهرة فرآها كعهددها جميلة مغرية وضاحية ندية . وشعر بأنه
أضعف من أن يقاوم هيب عواطفه أو يخفت صوت وجدانه أو
يسكت من ثورة أحاسيسه فانتفض وارتعش ثم أجفل وسكن مغمغماً .
إنك فوق طاقة البشر ، يجب التخلص منك ، ثم عاد يستم في عنف
المغيظ إنك قوة فوق القوة . ثم عاوده جنونه فأردف: ألا تخافين
من خطيبك ؟ . إنك تلعبين بالنار في مهارة فقاطعته ، وهى تبجهد
نفسها لتظل محتفظة بهدوئها ولطفها لقد ظلمتني . فضحك ساخراً
معقبا: وهل قال غير الواقع بحضورك . ثم حزن على شفته حتى أوشك
أن يمزقها وهو يفرك يديه في عصبية واضحة وراح يتأمل وجهها الساهم
الواجم برهة ثم أطرق لحظة ثم رفع وجهه لينظر إليها في قسوة
ووحشية قائلاً: أظنك انتهيت من تمثيل دورك . ولم يبق لى غير
الانسحاب خشية أن يأتى خطيبك .

ولم يكذبك هذا اللفظ حتى عاوده جنونه فصرخ في وجهها: إنك
لا تمتازين عن المرأة العادية بشيء كلاكما تكذب وتخدع... لقد علمتني
يا آنستى أن أعالج الإجرام ولقد خرجت من البحث بأن البقاء للأصلح
وأنت في نظري الآن غير صالحة .

وفي سرعة خاطفة وحركة سريعة أخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة في غير تردد . ملكها الرعب فأخرس صراخها ، ثم شملهما سكون رهيب ، بعد أن تبينا أن الرصاصة خرجت من النافذة .

وهرول أهلها يتساءلون ! . فتكلفت (هندية) الضحك في جهد لتهدئ من روعهم قائلة : كان يعلنني الرماية .

وصرخت الأم في وجهه حذار أن تعود إلى مثل هذا السخف ثم ألقت على ابنتها تبعة هذا التصرف الجنوني . ثم عاد إلى البيت هدوءه بعد أن تأكد الجميع أنها مجرد دعابة .

وشعرت « هندية » بما يحول في نفسه فأشفقت عليه وتلطفت به مقبلة عليه مرفقة عنه قائلة بصوت يشبه الهمس : لماذا فعلت هذا ؟ مع أنه في مقدورك أن تتخلص منى دون قتلى ؟ ..

قال : لو كان لفعلت ، ولكن الأمر فوق طاقتي .

قالت : سوف أعينك على التخلص منى فاطمئ .

قال في تهكم : بزواج الشيخ الوجيه . وسكت لحظة وهي أمامه مأخوذة من شدة الصدمة .

ثم أردف ، تتمشدين بالروحانية ، وما أنت إلا نداء صارخ من هتافات المادية ، بدليل أنك استجبت لمن هو أوفر منى مالا وجاها وحيوانية .

فقاطعته في تحد : قائل من الحكمة كان يكفى لمعرفة الحقيقة

واكنك تعجلت .. سامحك الله .. كيف تهم من عاشت وما زالت
تعيش ولا يمكن أن تعيش الا على شعاع الروحانية التي تترامى لى فى
أفق حياتى عن بعد أو قرب وبدونها الحياة جهمة سوداء مخيفة
موحشة تبعث اليأس والخيبة والفشل والانطواء ، هى الموت بعينه .
الحياة بدون الروحانية لا تعرف المسرة ولا البهجة ولا الحرية ولا
الحب ولا الإيمان إنها حياة تافهة زهيدة لا قيمة لها فى عمر الزمان الأبدى
إنها الموت حتما .. فهل أقبل أن تكون حياتى هكذا باهتة شاحبة
هزيلة ، خلوا من المسرة الروحية والبهجة المعنوية والإيمان الصادق
لشد ما أتوق إلى حياة أستقبل مع شمسها آمالى الضاحكة ومع الغروب
أستودع ذكرياتى الباسمة أو الدامعة .. وأنا على أى صورة كنت :
بسمة أو دمعة .. تسبيح وعبادة لله .. فإذا استطعتم أن تमितوا هذا
البدن الفانى بسلاح مادى أو معنوى .. فانى خالدة بروحى لأننى
كلية من كلمات الله وأغنية من أغانى الجنة .
فتنفس الصعداء ، وأحس بأن روحه بدأت تتيقظ وتنشعش
وغمغم : هيه يا هندية ! ..

قالت بصوت خافت متقطع : لكم أتمنى أن تفهمنى ، ثم تأوهمت فى
التباعد وحسرة إذ ملكتها روحها الطائرة ونفسها الشاعرة ،
وأردفت : إن تعلقى بغاندى صاحب المثل العليا فى هذه الحياة —
أحال الدنيا فى نظرى إلى لون من ألوان القوة الطاغية التى تسخر بكل

شيء .. فأتعبني وأتعبكم معي ، لماذا لم تقتلني لترحنى وترج الآخرين .
كانت لهجتها الأخيرة أشبه بلحن هادئ كأنه نغمات ناي متقطع
الأنفاس يفين حرارة وإيمنا .. وكأن ألفاظها تحولت إلى نور
ونار فأحس الرجل بالإشراق واللهب .. وعاد إليه عقله وقلبه معاً
فراها على حقيقتها : سمو وقداصة مجسمان في روح وقلب ، واستولى
عليه شعور مبهم غريب فصرخ : لا تنزوجي ، لا تنزوجي ، عيشي
هكذا قديسة قد يفسد الرجل طبعك ويشوه طهرك .. ليس في الوجود
من يغهمك سوى غاندى وسواى ، ترى ماذا كان يفعل غاندى لو
التقى بك وعاش بجوارك ؟.

وعاد إليه جنونه فصرخ : لا تنزوجي ، لا تنزوجي ،
لا تنزوجي غيرى .. ونظر إليها منتظراً كلمة واحدة .. ولكنها
لزمت الصمت عن أسى والتياح وحب ، فلما كنه جنونه وتذكر دعوة
خطيئها لحضور عقد قرانها .. وصعب عليه تخيلها زوجة لغيره وخيل
إليه أن الأمر انتهى وأنها ذهبت من يده إلى الأبد ، فخرج يعدو
كالمجنون وقد تركها مصعوقة لا تقوى على الحركة ولا تقدر على
الكلام ، خرج يعدو إذ تصور لها زوجة لغيره ، إذ لم يحتمل الخيال ،
وخاف أن يخونه وعيه فيقتلها حقاً وهو لا يستطيع أن يكرها
على الزوج منه .

أما هو فقد رجع إلى بيته حزينا كئيباً مهموما وارتقى على فراشه

وراح يبكي كالأطفال ومان عليه كل شيء إلا أن يفقدها . وجسم
له خياله جمالها وكما لها وبانت له في إطارها الروحاني فوق الحياة .
وراح يتمشى في الغرفة وبوده أن يحطم كل شيء ويحرق كل شيء .
ويميت كل شيء حيث لم يعد له في الحياة أمل .

وساءل نفسه ، لماذا لم تصرخ وتتهمه بالاعتداء على حياتها ليقبض
عليه ؟ لماذا وقفت بجانبه ؟ ودافعت عنه واتهمت نفسها لتبرئه ؟ لماذا
ابتسمت بدل أن تبكي ؟ لماذا تشجعت بدل أن تخور ؟ لماذا ترفقت
وعطفت بدل أن نقسو .

لماذا لم تطرده من بيتها في غير هوادة .

وصور له الفشل أنها ابتسمت له احتقاراً ونظرت إليه شهواً
كأنه شيء تافه حقير وأنها تساحت لأنه لا يستحق عقابها كند أرفيق
وهكذا اشتدت هواجسه وأسلمته إلى اليأس القاتل وملكه وهم الأموات ،
لم يكن جباناً ولا رعديداً حتى يخاف الموت ولكن شبه إشعاع من
النور يضئ له مسالك التفكير بعيداً عن العاطفة فيغالب يأسه
ويسخر من فكرة الانتحار .

ولم يلبث حتى ابتسم في سخرية لنفسه قائلاً : لتذهب ، ماهي إلا
فناة مصرية مطمعها المادة ورغبتها الجاه وأمانها ظواهر الترف ، لقد
كان يظنها فتاة مثالية فإذا بها لا تمتاز عن لذاتها بشيء ترحب بالزوج
الثري وتفرح بالعطاء السخي ولو كان من جاهل غبي أو مقامر سكير

أليست هذه حقيقة الكثيرات من بنات جنسها يتزوجن للثقة والرفاهية . ثم قمقه في سخرية وجنون مردفا لقد أصبحت الحياة في ناظري سواداً وفراغاً هائلاً لا ينتهي إلى غاية ، سنون تمر وأمم تنمو ، أناس يولدون وأناس يموتون — هه — وهم هذه الحياة وسراب لا يستحق تفكيراً ولا كفاحاً . الأمل وحده خلق التفكير والكفاح وقد ذهب أمله وراء الموت . فم يعيش ؟ . . . يسكن ملياً حتى أرخى الليل وشاحه الأسود على السكون فأنقذ من صدره ولاحت له من وراء أفق خياله تناديه بأرق الأصوات عذوبة وتلوح له بيدها البضة لتكشف له عما وراء قلبها المخلق وطال تخيله وتجسم حنينه وعاد يتصورها بكل ما فيها وكل ما فيها يبعث الحنين والشوق والذهقة والحب . إن مجرد التخيل ينعشه ويشعره بالدفء والحياة فما باله لو ملكها وضم قلبها إلى قلبه . إن الحياة بدونها خراب . وتذكر قولها له مرة . أنه لو فرض وفقدت انساناً يحبها . فسوف تكسر ما بقي من عمرها على ذكراه إذن خفير وسيلة لكي تعيش معه بعواطفها وتفكيرها حتى ولو كانت مقيدة برجل آخر . إنها تؤمن بفلسفة الهند في خلود الروح . وعيشها مع روح من تحب في الحياة وهنا اسبراح إلى هذا الخاطر واعتكف في بيته . . . وهي عاكفة في محرابها تصلي لله وتدعوه الرحمة له ولها مترقبة مجيئه . ولكن الأيام مرت بعضها آخذ برقاب بعض دون أن يلقاها أو يرسل إليها رسولا ، وكثيراً ما همت بالاتصال

به لكن حياءها وكبرياءها كانا أبدا يسيطران عليها ، فصبرت على
مضن معتقدة أنه سيعود إليها بعد أن تهدأ العاصفة ويعود إلى قلبه
صفاءه .

وفجأه تزورها أخته فيروعها أن تراها حزينة كشيبة دامعة العينين
ترتدى ملابس السواد وبعد أن حيتها في ألم واضح قدمت لها زجاجة
أوصى الفقيد أن تسلم إليها بعد مماته وقد كتب عليها (هنا آخر
أنفاس الشهيد وهي روحه الامرئية يتركها ذكرى للهندية) ولم
تستطع الكلام لأن البكاء عقد لسانها والحزن أفقدها المنطق وبعد
صمت مليء بالدموع قالت الأخت في جهد ومرارة لقد : مات ،
ولا ندرى كيف ، وكان كما تعلمين قويا فتيا وكان وحيدا في غرفته
بعد أن اعتكف بعض أيام وقد وجد مسجى في فراشه وبجانبه
الزجاجة والوصية .

« النهاية »

لاتدرى (هندية) كم من الأيام مرت عليها وهي غائبة عن
دنياها لاتفكر إلا في الميت ولاتعيش بعواطفها الامة إذ كان
كل محتويات غرفتها تشير ذكراه حتى أوشكت أن تبجن من فرط
اضطرام عواطفها متلمسة خياله ومتحسنة أنفاسه في كل مرأى
وفي كل مشهد . نظراته ، كلماته حركاته . كل ما يتعلق بنفسه وروحه

تحبس به . وظلت حبيسة محرابها سجيئة حزنها حتى وقع نظرها فجأة على آخر رسالة منه وكانت تطالعها عند مجيء أختها . فأجبت نيران حزنها وأضربت عواطفها حتى أوشك قلبها أن يقف عن الحركة ولطالما راحت تناجي نفسها قائلة :

آه لو عاش لسان من خير الناس للناس . وبدأ لها أن كيائها الذي يحبس روحها تافه لا قيمة له . وأنه في مقدور روحها لو انطلقت من هذا السجن أن تؤدي رسالة أعظم وأخطر . في مقدورها أن تطهر الأرواح الشريرة وترفعها إلى مصاف المؤمنين المطهرين :

وتحت تأثير هذا الإحساس جمعت رسائله وكل ما ينتمى إليه من تحف وهدايا وملابسها الذي كان يحبها ورسومها الذي كان يألفها وقيثارها الذي كان يداعب أوتاره ليتعلم منها لحناً أو نشيداً أو يستمتع لها وكل ما ينتمى إلى حبه وحياته بصلة وأغلقت الباب والنوافذ غلقاً محكماً ثم أشعلت النار فيها وكلما هدأت النار أضافت إليها كل ما يقع نظرها عليه مما وقع نظره عليه متنفسة في عمق وبطء لتستروح أنفاسه من ذلك اللهب . كانت تبلل الشيء بدموعها وتقبله بشفتيها ثم تقذف به في اللهب متمنية لو كان في مقدورها أن تنزع قلبها لتلقى به في جوف النار أيضاً لتمتزج آخر أنفاسها بآخر أنفاسه وظلت كذلك تغدى النار لتزداد اشتعالاً مسحورة غير شاعرة بالدخان الذي يتكاثر منذراً قرب ساعة الاختناق متممة في جنون : فليحترق كل شيء ولا يندثر

ويتحول رماداً كما تحول هو وظلت هكذا حتى اندفع الدخان في
قوة طاغية لم تتبين منها مسلكاً ترم منه . بل لم تفكر في الفرار
حتى أحست بأن ملابسها اشتعلت . هنا تنبه إيمانها النائم وغريزة حب
الحياة وهي لم تزل في ريعان الشباب تخافت أن تموت كافرة .
فصرخت مستغيثة وصوت النار يبدو كأنه زغاريد عرس .

هرعوا إلى غرفتها فإذا بها موصدة . . كسروا الباب والآن
تصرخ كالجنونة في غير وعي .

نجت بمعجزة ، إذ مزقوا الشيا بقبل أن يحترق غلاف الروح وظلت
ملازمة لفراسها رغم تقرير الطبيب بأنها خالية من العلل والأمراض
إذ لازمها هزال المحمومين بالعاطفة الحبيسة لا تتكلم إلا لما وأمر هام
منطوية على نفسها وقد ظلت كذلك حتى حل يوم وفاته فتركت دارها
لأول مرة تنقل خطاها في جهد وإعياء تحمل باقة من البنفسج الذي
كان يحبه لتضعه فوق قبره .

الخاتمة

عاشت بعد ذلك بقلب مغلق وروح طائرة بعيدة عن مغريات الحياة تعيش بعين خيالها لا بعين الواقع متمشية مع أخیلتها التي تهی لها الجو الذي تتعشقه بإحساسها الساذج الذي یجرى كالفرحة فی عجالة دون أن یتیم حفرة فی أعماق الذکری قانعة من الدنيا باللحظة التي تعيش فیها ولا تفکر فيما وراءها ، ذلك لأن فنها فن الفطرة النقية المترعة الفياضة دون أن تأبه للصقل أو ما یشام فی التماثل كما كان یصنع فی تماثل العصر البدائی الذي سبق عصر (فیدياس) لكن هل فی مقدورها أن تظل كذلك قانعة بالإیمان والفن راسمة خواطرها فی صور ساحرة لقد لقحت فلسفة غاندى لإیمانها بالفن وأخرجت منها لو نا جدیداً عجیباً فیهِ خلاصة الفلسفة الروحية بما تدعو إلیهِ من احتمال وقوة وتسام .

لقد عذبت نفسها وعذبت غیرها من أجل إبراز هذا الفن الروحی أو الحب المثالی ، تسائل نفسها و غیرها كلها تلیست النقص الواضح فی روحانية أبناء شعبها :

لماذا یصعب علی أبناء مصر أن یكونوا كأبناء الهند الروحانيين؟
ولماذا تعلقت هی بفلسفة المهاتما وعاشت بها ولها مع أنها لم تره

حتى تهتم بأنها فتنت بغير الروح فيه وفنونها . . أليس في خضوعها
واسمها سلامها للروحانية الهندية معنى أ كيد صريح بأن النوة الروحية
التي غزا بها غاندى العالم هي اقوى قوة مهيمنة على الوجود .
بهذه الخراطير كانت تشغل نفسها .

وفجأة اختفت .

وراح الأهل والمعارف يبحثون ويتساءلون ترى أين هي قالت
الأم وهي كالخجولة : إن مسامن الجن أصابها من فرط تفكيرها
وخلوها بنفسها وهي تعيش الآن عند قرية لها تعيينها على علاج نفسها
بما ألم بها ، كانت تقول ذلك وهي لا تدرى أين هي . وتخفى وراء
ضلوعها هم الأم وأساها لفقد ابنتها الوحيدة وهي حية وكانت
تحاول إخفاء جميعتها خوفاً من أن يتناول الناس ابنتها بالسوء إذا
علموا أنها اختفت أو هربت بلا سبب معروف ولم يدر أحد أين
ذهبت بالضبط . غير ما تقوله الأم .

إلا أن إنسانة وحيدة تسكن سرها وتعلم أمرها وتدرى أين هي
وهي بدورها تخفى عن الناس حقيقة أمرها احتراماً لمشية هندية التي
أوصتها بالسكتان ، وتقول هذه الصديقه لمن تأتمنه سرها وتطمئن إليه .

ان خجعة هندية لموت فتاها الذي استطاع أن يكون - غنديا -
كانت فوق احتمالها وإنها لم تستطع أن تعيش في بلاد تذكرها به .

أو تضطرها قهرا إلى الخضوع لحياة لا ترضاها لنفسها . فحملت معها الزجاجة التي تحمل آخر أنفاس الميت وقد عاد إليها حب غاندى من جديد . فى عنف وقوة كأن غاندى الميت فى حبيبها عادت إليه الحياة والحرارة فى حب غاندى الحى الذى يقيم فى الهند فأثرت أن تذهب إليه لتعيش بجواره متطوعة فى خدمته . وقد اشتدت هذه الرغبة حتى دفعتها إلى السفر فسافرت إلى حيث يقيم .

ولم تكد تصل إلى - الهند متنقلة من بلد إلى بلد حتى وصلت إلى مقر - غاندى - وهناك رأت الحزن والفرح يخيم على الربوع والهلل يملك النفوس والناس تصرخ فى كل مكان . مات غاندى . مات منقذ الهند . مات رسول الإنسانية . ورغم هذه الهتافات التى تملأ جنبات الهند كانت وحدها تغمغم فى غير وعى : لم يمت غاندى إنه حى . إن روحه يخلق فى كل مكان .

وامتزج صراخها مع صراخ الهنود غير أن مصيبتها كانت أعظم من مصيبتهم لأنها فقدت غاندى مرتين .



المؤلفة :

مرشد الفتاة	نقد	تدبير	مترلي
سعادة المرأة	»	»	»
النسبات	»	اجتماعيات	»
الظائر الحائر	»	قصة	»
المرأة الرحيمة	»	مسرحية	»
الأميرة	»	قصة	»
الراعية	»	»	»
صدى أحلامي	»	ديوان شعر	»
أمانى	»	قصة	»
الحب يهذى	»	»	»
أدب الربيع	دراسات عن الربيع شعراً ونثراً (إخراج الشعراء)	»	»
قضية فلسطين	دراسات عن قضية فلسطين (إخراج المؤلفة)	»	»
أرواح تتآلف	»	قصة في رسائل	»
إيمان الإيمان	»	قصة	»

تحت الطبع

صدى أحلامي الجزء الثاني	ديوان شعر
جاسوسة صهيونية	قصة
أسرار راهبة	»